

الجزء الأول

الطبعة الثالثة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها: مصطفى محمد

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

الى القراء الكرام

كتبت سيدى الوالد المرحوم « مصطفى بك نجيب » هذا المؤلف الجليل فى تاريخ ابطال الاسلام وحماته ، وقام بنشره فقيد الوطن المرحوم المبرور « مصطفى كامل باشا »

ولما نفدت نسخه من المكاتب وألح على كثيرون باعادة طبعه رأيت براً بسيدى الوالد رحمه الله ، وبالقراء الافاضل ، و باذن حضرة صاحب العزة (على بك فهمى كامل) أن يظهر كتاب (حماة الاسلام) ثانية فى ثوبه القشيب مهديا بمقدمة جديدة كتبها الى خصيصاً من برلين فقيد البلاد وخليفة مصطفى كامل باشا المرحوم محمد فريد بك

وقد نفدت الطبعة الثانية منه فطلب حضرة السيد الفاضل الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر اعادة طبعه ونشره فكنت عند رغبته

فالى القراء الكرام أقدم كتاب (حماة الاسلام) ولا أنسى أن أقدم واجب الشكر الى حضرة الحاج مصطفى محمد بما قام به من اعادة طبعه مرددا لفائدة القراء . والله الموفق الى أقوم طريق

ربيع الثانى سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م — سليمان نجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلي على نبيه الكريم سيد الأنبياء والمرسلين . وبعد فقد رأيت أن المسلمين فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم محتاجون الى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة أكثر من غيرهم . مفتقرون الى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسبل نجاح أسلافهم . غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم ، تلك المفاخر التى يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للاتيان بمثلها . وعلمت من سياحاتى فى بلاد العرب ورحلاتى اليه أن أهم الأمور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للأوطان منارا عاليا . وشيدوا من المجد صروحا لا تنالها يد الحدثان ، وأقاموا للعلم والمعرفة [illegible] وأى بنيان . وان للقوم فى ممالك أوربا حرصا شديدا على تلك السير فتراهم يباهون [illegible] الأمم ، ويجعلونها لأبنائهم وناشئيهم الدروس الأولى ، والقصص التى بها يتمسكون ومنها يتعلمون

فدفعتنى محبة الاسلام ورغبتى الأكيدة فى خير بنيه ورفعة أهله الى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ، ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع [illegible] عظماء الرجال فى الاسلام تنبيها للغافلين ، وارشادا للجاهلين ، واحياء لتلك المآثر الباهرة ، والسير العاطرة ، فأجاب الدعوة حبا للخدمة العامة . واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصا لوجه الله الكريم

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى المؤيد تحت عنوان (رجال الاسلام) فكان لها من الدوى والرنين مالم تنله أبدع رسائل المنشئين ، وأجود منشآت الكاتبين . مما حبب الينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الأمة الاسلامية الكريمة عساها اذا ذكرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيا منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة

والله المسئول أن يجزى المؤلف خيرا . ويحقق ما نؤمل من [illegible] للاسلام والمسلمين

مصر فى ٤ ذى الحجة سنة ١٣١٨ ([illegible])

عثرة الاسلام بعد نهضته

« جاء بجريدة الشعب الغراء بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٢ -
٢١ يوليه سنة ١٩١٤

« تفضل صاحب العزة الاستاذ المحقق محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى فكتب مقدمة موجزة بليغة لكتاب حماة الاسلام - تأليف فقيد العلم والوطنية المصرية المؤرخ الكبير المرحوم مصطفى بك نجيب وكيل قسم الادارة سابقا بنظارة الداخلية ، وهو كتاب تاريخى جليل ذو شهرة واسعة فى العالم الاسلامى ، وكان قد طبعه صديق المؤلف فقيد مصر والشرق المغفور له مصطفى كامل — فنفد جميع ما طبع منه

والآن قرت عزيمة حضرة الأديب الألمعى الفاضل سليمان افندى نجيب على اعادة طبعه وطبع غيره من مؤلفات والده الشائقة بواسطة بعض المكاتب الشهيرة فى القاهرة فرأينا تتميما للفائدة وتنويها بفضل مؤلف هذا السفر المحكم أن ننشر هذه المقدمة قبل صدور الطبعة الثانية منه التى يرجى ظهورها قريبا

قال الاستاذ فريد بك حفظه الله :

« كان افتتاح القرن الرابع عشر للهجرة النبوية مبدأ عصر محن ومصائب نزلت بالعالم الاسلامى فقصمت منه الظهر . وفككت منه الأوصال . وانتقصت من أطراف الدولة الاسلامية البقية الباقية . وكادت تقضى بتقلص ظل الاسلام السامى من هذا العالم . لولا أن أتاح الله له عصبة ذات قوة ونشاط قامت فى وجه المهاجمين له من كل طرف وبذلت المهج فى المحافظة على تلك البقية الباقية من أن تكون حظا مناسبا من الجامعة من الاقاليم والبلدان »

افتتح القرن فجرى بسط فرنسا حمايتها على بلاد تونس بعد ان فتحت بلاد الجزائر [illegible] ... البوسنة والهرسك [illegible] ... جزيرة

على أن تأخذ فرنسا مملكة مراكش أجراً على عدم معارضتها لاحتلال انجلترا للكنانة وماتبعها .

ثم ختمت هاته المصائب بالحرب البلقانية التي بلغ فيها الاعداء ابواب ... ولم تقفهم عن الدخول فيها الا أبطال العثمانيين الذين أسقطوا وزارة ... المسببة لكل هذا الخراب ، ونصبوا مكانها وزارة البطل الشهير محمود شوكت باشا . و ... أفضت هذه الكارثة الى ضياع بلاد ألبانيا التى جعلتها أوربا أو بالاحرى دول التحالف الثلاثى إمارة مستقلة يحكمها أمير مسيحى توطئة لتجزئتها فيما بعد بين ايطاليا والنمسا ، والى تقسيم مقدونيا بين اليونان والصرب والبلغار . حتى لم يبق للدولة العثمانية فى أوربا الالسان صغير من الارض يحده من الشمال مدينة ادرنه العاصمة القديمة لدولة آل عثمان ، التى لم يستردها العثمانيون من البلغاريين الا بعد ان ارتكب الاخيرون فيها مالاعين رأت ولا أذن سمعت من الفظائع والمنكرات والفضائح والموبقات

ولقد صدق من قال : « رب ضارة نافعة » ، لانه اذا كانت نتيجة هذه الحرب سيئة من الوجهة المادية فانها أسفرت عن نتائج حسنة عظيمة من الوجهة الادبية اذ كانت سببا فى ظهور ماتكنه قلوب المسلمين فى جميع الاقطار من ... لدولة الخلافة والتعلق الثابت بها والمحافظة على ولائها ، وان كان هناك فريق من الخوارج يعملون على التفريق بين عناصرها فهم لاشك خاسرون

انه فى مثل هذه الآونة التى يتحتم فيها تقوية روابط الاخاء والتحالف السياسى بين المسلمين يجب على الكتاب الصحفيين والمؤلفين أن يبينوا للعالم الاسلامى فضل الاتحاد وماسببه للاسلام فى مبدأ ظهوره من رفعة وقوة ، ومضار التفرقة وماجرته عليه من الخراب والدمار ، وأن ينصحوا للمسلمين جميعاً بالالتفاف حول خلافة آل عثمان ، ليكونوا عونا لها على دول الصليب المتألبة عليها قاصدة ان لا يبقى للاسلام دولة مستقلة يعتز بها

وممن كتبوا وأجادوا فى هذا الموضوع وأظهروا جلياً مضار الانقسام ... مصطفى بك نجيب ، فقد أتى فى كتابه « حماة الاسلام » على فلسفة ...

بينا اسباب ارتقائه فى عهده الأول ودواعى انحطاطه بعد أن دب الشقاق بين ملوكه وحكامه ، وطمع كل منهم فى الاستقلال بما ولى عليه من البلاد ، وقد سار المرحوم فى كتابه على الخطة المثلى التى انتهجها المؤلف الفرنسى (مونتسكيو) فى مؤلفه أسباب ارتقاء وانحطاط دولة الرومان . وهى الطريقه المفيدة التى يجمل بالمؤلفين فى هذا الباب أن يسيروا عليها ان أرادوا النجاح فى تنبيه أفكار المسلمين الى مايحيق بهم ويتهددهم فى كل وقت من الاخطار ، أورغبوا فى إلفات أنظار الأمراء المسلمين الى مايجلبونه على الاسلام من الضرر بسعيهم فى الانفصال عن الجامعة العثمانية التى تمثل فى هذا الحين الجامعة الاسلامية .

ولله درّ ولد المؤلف الذى عرف قدر مؤلفات والده النفيسة فشرع فى إعادة طبعها ، ولا غرابة فى ذلك فان هذا الشبل من ذاك الاسد (وقد يخرج الفرع شبه الاصل للناس)

وفق الله المسلمين إلى ادراك حقائق أحوالهم . وهدى أمراءهم سواء السبيل

محمد فريد

مقدمة المؤلف

ان الحكيم الذى ينصب نفسه لتربية الامة يجب عليه أن يدخل بها فى كثير من أبواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الاخلاق، لي حقق من استعدادها الفطرى، ويظهر له الوجه الذى تصبو اليه، والموطن الذى تانس. والمقصد الذى تتوجه اليه، حتى إذا دعاها الى الولوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحا لها لبته، لأنه أصبح هو وشوقها عليها

وقد رأينا أن الدين نصبوا أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب، فأخدوها بالرفق والدعوة للخير. ثم واجهوها بالزجر والاعات. وضربوا لها الأمثال. وحذروها عواقب ماهى فيه. ودعوها إلى محاذاة الأمم ومجاراتها. وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة. ثم رأينا ورأوا أنهم على طول هذا الزمان لم يصلوا الى كل ماأرادوا، بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادىء الشريفة التى نهجوها وأرادوها

تحقق لهم أنهم كلما احتهدوا فسدوا عليها بابا من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبوابا من المفاسد، ولم يأمن فيها العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق الا قليلهم

ظهر لهم أن الأمة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها، بل هى فى مهب ريح الاغراض سائرة مع كل قائد، وعلى الخصوص لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى أصبح منطلياً على أكثرها، فما أسرع أن تابعه إذا دعاها وتصره إذا سألها

ثبت لهم أن فى الأمة عدداً عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم؛ بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم. فلا بد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له فى القلوب رنة، وفى النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة

تبين لهم أن فى حواس الأمة خدراً جعلها لا تتأثر لمصابها. كصاحب العاهة الذى تعيره الصبيان بها فيتألم منهم فى أول أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ربثما يعرف أن الناس تسامعت بعاهته واشتهر بها فيسكن ويضحك من نفسه كما تضحك الناس منه

ولا عجب فى هذا ، لأن فقدان الفضائل ، وارتكاب أضدادها ، وسلوك الطرق المبتدعة ، وانتقاص الأخلاق ، ونسيان العوائد الجميلة ، والافراط فى أسباب الحضارة من الرياش والترف ، والتناهى فى عدم القناعة ، بدّل الخلق من أصله ، وحول العالم بأسره ، وكأنما خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث

نعم يجب على الناصح أن ينادى فى الأمة بذلك الصوت من غير أن يدعوه حالها لليأس ، أو يسد عليه باب الأمل ، أو يقطع عنه طريق الخير ، أو يمانعه فى وصول النفع . فان أبواب الصلاح لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الأمين ، والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع ان شاء الله

وان من أبواب التربية التى لم تقرع ، وطرقها الجسيمة التى لم تسلك ، وشرعتها الغزيرة التى لم تقصد دعوة الامة للنظر فى ماضى أمرها وأولية شأنها ؛ لتعلم من هى عساها تخجل من أن تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف . عساها تأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه ولى ملكاً فلم يحسن سياسته ، ورزق سعة من المال فلم يدبر أمر تنميته

هذا الباب من أحسن الابواب التى تثقف أفكار الامة وأقرب ما تتربى على خيره طباعها ، فان تذكارها مجدها القديم ، وتمثيل عزها السالف لها ، وتشخيص مجدها الشامخ أمام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة

أحسن رادع للانسان عن شهواته أن يلتفت وراءه فيرى فى أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا و[illegible] لهم الا مجداً أقاموه . وعزاً شادوه ؛ وشرفاً حفظوه . وأكبر مسبل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه بمجد آبائه وأجداده ، حتى تستتر عنه كرامة أخلاقهم ، وتحجب عنه جميل طباعهم . ولم يذكره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة . إنه لا يأنف أبداً من إتيان الدنيئة وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والأخلاق الطاهرة

ألا ترى الدهاة من الفاتحين ـ خصوصاً وحال الممالك العربية الآن الذين لا يغفلون [illegible] ولا يغضون عن فرصة ـ إذا فتحوا بلدة اسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها ـ [illegible] وخدمهم واستذلوهم

بذلك شيئا آخر . فتراهم إذا نسوا تاريخ حياتهم ، وأشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى ، وشبت النفوس على ماسيقت اليه . وبدت على الامة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لاتنسب بالمرة لسوابق عوائدها ، وتقربوا من تلك الامم الطارئين بكل طريقة ، وابتعدوا عن ذلك الاصل الشريف الذى هم منه

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفل حدها ووهن سلطانها . وتتداعى للتلاشى والاضمحلال ، وينتقص من عمرانها ، ويندوس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عوائدها الشريفة

ثم تتناهى الامة فى الفجور ، وتتفانى فى البغى والضلال ، حتى تعود باللائمة على أصل دينها وعوائدها وأخلاقها . تقول وهى لاتستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها : إنها ما أخذت الا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياه المدنية ومستلزماتها ، وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة فى المآخذ والمتارك يودون من صميم أفئدتهم أن لو استبدلوا بطباعهم وعوائدهم شيئاً آخر . ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية ، ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الاسلام كالاندلس وغيرها

عدو أولئك انهم يغدون ويروحون بين رجلين : إما عدو لهـذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة (كبعض فلاسفة هذا الزمان) . وإما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيئا لاخيراً ولاضراً (كأغلب سكان هذا العصر)

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ويتحسون القرابه لامه وملته . لانهم أقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله لايعلمون وهم أهله مكرمة له يعدها المناسب منهم اليه مفخرة إذا نازعه منازع فى الانتساب اليه

ينبغى لهم أن يتألموا من أن يكونوا مسلمين . لانهم لايدركون المسـ . . . جا أبلوا فيه بلاء حسنا ، ولا يعرفون لهم حربا ولاضربا . ولا نحققه ن ى أى قدم الارض نشا المسلمون وفى أى جهة كانوا شرقاً أم غربا . ولا حصون لهم . . . أنهم وهم على قلتهم فاجؤوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم . . .

حماتها من عروشهم، وبثوا فيها معالم د... ... ...ر وها حنيفية بعد أن كانت جاهلية
كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون أنهم قوم نشؤوا وسط البداوة
لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الأودية. عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة
لا يعقلون أن جميع مكارم الاخلاق إنما هي منتزعة منهم مأخوذة عنهم، وأن
مايدعيه المدعي من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والانصاف
والاحسان إنما هو مجاز بالنسبة له، حقيقة بالنسبة اليهم. وإن هذه الامة جاهلية
كانت أو حنيفية لم تفارقها مكارم الاخلاق كحفظ الجار والجوار، ومراعاة الشرف
والذمة، واحقاق الحق وقول الصدق، ومحاسن الاعمال وجميل الخصال

من يعلمهم أن ملتهم هذه هي أول من تنافس أهلها في الخير وتحدوا غيرهم
بخلال الكرم كالعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف
وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الأموال
فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند
مايحددون لهم من فعل أو ترك وكرامة أهل الدين واخياء من الأكابر وتوقيرهم
واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعى اليه وانصاف المستضعفين والتبذل
فى أموالهم والنوصع للمساكين واسماع شكوى المستغيثين والتجافى عن الغدر
والمكر والخديعة ونقض العهد

من لهم بأن يحصروا أن ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هى أجمل
وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة للأمم التى تحت أيديهم
ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثاً. وأن الله قد أذن بوجوده فيهم لوجود
علاماته فى قبيلهم

من ...لهم أن رجال الدين الاسلامى كانوا خير مجمع لتأسيس قواعد
...نة والاخاء والمساواة. وان أهله هم الذين جابوا القفار وقطعوا الأودية
و... ... "...ح... ...ب العلم والانتفاع به. وانه لم يزهر فى دولة إزهاره فى
دولتهم. و... ...كثرته فى سلطانهم حتى تفوت حصره. وانتصر لواؤه، وأذعن
الناس لقوته. و... ... ...عقد لهم ... ...ه

لابد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون لواء الدولة والمباشرون للأمر أنهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة، وليتحققوا أنهم أهلها وان الفضائل التى أخذت فى الذهاب عنهم والملك الذى صارت الأعداء ترتقب زواله من بين أيديهم، انما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم. ورضوخهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب. وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لا يدانيهم، وحبهم تقليد سواهم، واستبدالهم عوائد أممهم وأجيالهم بعوائد غيرهم

لهذا قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى أن ننسق من أخبار هذه الأمة الشريفة المكرمة شيئاً نجعله مسطراً على صفحات (اللواء) المحمود مندمجاً فى تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده. ثم برجال الدولة الأموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها وأظهروا فى الفتوح آيتها وأتموا بالوقوف على قدم الخير غايتها. ثم ما كان فى الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها فى فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير فى تدوين الدواوين واعلاء كلمة السلاطين وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك. ثم ما كان من أعاظم رجال دولة الموحدين والملثمين. ثم ما كان من مدنية الدولة الأموية بالأندلس وعجائب خلفائها فى الآراء والأفكار. ثم ما كان من الدولة التركية صانها الله لنصره الدين واحترامه وتعزيز أهله وخلوها من بدعة مبتدعة أو شبهه مصطنعة وما كان من استطالتها على جميع النواحى والأمصار فى جميع الأقطار معقبين ذلك بما نراه من الحوادث صحيح العلل والأسباب، فاتحين للقارىء فى ساحة الاعتبار ما أتاه من باب. كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما فى هذا الجراب

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

ولا عار فى ذلك ولا شنار فان هذا الباب لا يستحى أن يأخذ منه الملوك.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح، ...

العظمة وتتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال ، فتتشوق نفوسها لتجديده والا فهى مستحقة لما هى فيه . فانه اذا كان للعقاب أوقات مناسبة ، ولقبول الأذى نفوس ، مستحقة فأحق أمة بعقوبة الدل (أمة ذات مجد قديم لا تستحى من إضاعة مجدها)

عساها لو نظرت فى ذلك تجتهد فى تهيئة نفسها لقبول العدالة التى تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها فان من أهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره فى ايصاله اليه أبطأ وأهمل

عساها تنظر فتجد فيها بقية من خميرة الملك والسلطان الذى لا يحتاج تأييدهما الا الى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول علم الخلافة . فتهب من رقدتها ، وتعمل فيما فيه الخير والصلاح لنفسها

وقد أخذنا على أنفسنا أن نكتب فى جريدة (اللواء) كل يوم جمعة من كل أسبوع سيرة عظيم من عظماء الأمة الاسلامية . فكاهة بين أخباره ، ونكتة بين أغراضه وأسراره ، مبتدئين من يوم الجمعة خامس شهر محرم الحرام مفتتح سنة ١٣١٨

والله المعين على هذا العمل الذى لا نقصد به الا وجهه الكريم ، واعادة سلافة الذكر الجميل لافعال حماة دينه القويم . ودعوة اخواننا الى النظر للمقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم ، وماصاروا اليه من الانقياد والتسليم ، فقد أشفى الحال على الخطر ، وأصبح ذنب المغرب مهيئاً للافتراس ، مستديم النظر ، حديد البصر . ونحن الى التعاضد والتناصر فى حفظ هذا الملك مفتقرون و « لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون »

مصطفى نجيب

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

جعل الله سبحانه وتعالى النبوة في بيت واحد لا يشترك في فضيلتها مع أنبيائه أحد . قال تعالى « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من ذرية سيدنا اسماعيل بن سيدنا ابراهيم عليهما السلام من أكرم بيت من مضر . خلق الله الخلق فجعله في خير حلقه ، وجعلهم فرقا فصيره في أحسن فرقة ، وبيوتاً فأحله في أرفع بيت وأسماه وأشرفه

(ابن عبد الله) المعروف مكانه من بني عبد المطلب . من أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً : (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة نسباً وشرفاً . تزوج بها عبدالله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء

مالبث عبدالله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات وأمه حامل به حتى كانت الليلة التي تمخض بها الزمان ، وتكهنت بها اليهود ، ورصدتها الرهبان . الليلة التي أراد الله أن يخرج الانسان فيها إلى نور الفلاح من ظلمات الجهالة . الليلة التي ابتهجت فيها الحظائر القدسية ، وازينت فيها السماء فوق زينتها باشراق الغزالة استل فيها سيف الله من قرابه . وانتشل فيها سهمه من اهابه . وظهر ليثه من غابه ، وهطل غيثه من سحابه ، فتنادت الرهبان بظهور أكرم مولود في هذا الوجود

ولد صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ٢٠ ابريل سنه ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام في زمن كسرى أنوشروان أنبه ملوك الفرس في أيامه ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن نفسه : (ولدت في زمن الملك العادل)

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ولم يرث الا خمسة جمال وبعض لقاح وجارية فتجافت المرضعات عنه إلا حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية ظئره لما أراد الله من تشريفها فدر لبنها وقد جف ، ولبن شارفها على حين لا يجد انسان قطرة في ضرع . وأخصب الله بلاد بني سعد ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها . وهذه من إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم

شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يكلؤه ويحوطه من أمام ... خلفه هديه

لما يريد من كرامته ورسالته ، وان يكون أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأعطفهم جوارا ، وأوجههم خلقاً ، وأرجحهم حلما ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والاخلاق التى تؤنس الرجال تنزهاوتكرماً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين ، لأنه استوفى من مكارم الاخلاق كل مكرمة لم ير كمالها فى بشر

وكيف لايسمونه بالأمين ، وما رأوا صبراً كصبره ، ولا حلما كحلمه ، ولا كوفائه ولا كزهدة ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشيرته ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته اذا صمت ولا كقوله اذا قال ولا كعجيب نشأته ولا كقلة تلونه ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه

توفيت والدته فاحتضنه جده عبد المطلب فكان يجلسه معه فى ظل الكعبة بين اعمامه . ثم مات فكفله عمه ابو طالب وكان كريماً غير أنه كان فقيراً بحيث لايملك كفاف اهله . وكان حاله صلى الله عليه وسلم كحال احدبنى عمه ، وصبية قومه ، ويزيد عليهم اليتم بفقد الابوين

عاش بين قومه على هذا الحال بغير مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب باد يقوم بتهذيبه ، سوى طهارة العقيدة ، وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانى الأدب التى يجد سدها فى وحدانه الكريم شعوراً بالفضيلة وتلبية لنداتها ، وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها ، وخلطاؤه أولياء الاصنام وخدامها . وهو متحل بالادب الالهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الايتام والفقراء حصوصاً مع بعده عن معتقد القوام عليه كل هذا ليتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

خرج عمه الى الشام فى ركب للاتجار فاخذه معه فلما نزل الركب بصرى وفيها بحيرا الراهب علم أهل النصرانية وأمامهم فى علمهم الذى يتوارثونه كابرا عن كابر صنع لهم طعاما ونزل من صومعته ولم تكن تلك عادته ، فلما أكلوا سأل بحيرا النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء فى حاله ونومه وهيئته ونظر لعلامات فى بدنه الشريف . ثم أوصى عمه أبا طالب ان يسرع فيقدم به مكة وحذره من اليهود

تحدثت الناس بكرم احلاقه ، وحسن خلقه ، وعظم أمانته ، وصدق حديثه فعرضت

عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى مالها للشام ومعه ميسرة غلامها، فرأى ظلل الغمام تظله من الشمس وهو يسير، ثم شاهد من أمانته ما شاهد. فلما قدما أخبر سيدته بأمانته وطهارته ويمن طائره، وبما رآه وما ظهر لهمن البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور. وكانت خديجة امرأة حازمة فرغبت فيه بسبب ذلك لقرابته، وسطته فى قومه وذكرت ذلك لأعمامه فخطبها له عمه. وهى أم ولده كلهم الا (ابراهيم فانه من مارية)

كان فى هذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه. ويعر نزخارفها. رفه فى العيش، وعون على بلوغ الأمل، ولكن الحال غير هذا. وكلما تقدمت به السن نما فى قلبه حب الخلوة والانفراد الى أن تجلى عليه النور الالهى وانكشف له العالم بأجمعه

ظهر الهدى الالهى فى عمله صلى الله عليه وسلم فازال الفتنة من بين قريش وقد كاد تنازعهم يفضى الى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه. فاستدعى ثوبا وأخذ الحجر فوضعه فيه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبنى عليه

بلغ سنه أربعين سنة الا ستة أشهر فبدأت الرؤيا الصالحة لايرى رؤيا فى نومه الا جاءت كفلق الصبح وحبب الله اليه الخلوة فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم الله العباد بكشف ماغاب عنهم من مصالح البشر. فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق»، كما وردت به الاخبار الصحيحة. وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال. لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : (كلا. والله لايخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم. وتحمل الكل. وتكسب المعدوم. وتقرى الضيف. وتعين على نوائب الحق) ثم انطلقت به الى ورقة بن نوفل ابن عمها فقالت له خديجة يابن عم اسمع من ابن أخيك فقال ورقة. يابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة. هذا الناموس الذى نزل الله على موسى. ياليتنى فيها جذعا [illegible]

حياً اذ يخرجك قومك . قال : « أو مخرجيهم ؟ » قال نعم . لم يأت رجل بمثل ماجئت به الا عودي وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا

ثم فتر الوحي فشق عليه حتى عاوده بقوله تعالى : « ياأيها المدثر قم فأنذر » فقام يدعو الناس إلى الايمان بالله تعالى . فأول من آمن به من النساء خديجة ، ومن الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالي زيد . ثم تتابع الوحي وتتابع دخول الناس في الاسلام . وكان أبو بكر محبباً سهلا . وكانت رجالات قريش تألفه فاسلم على يديه من وثق به

دخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء وفشا الاسلام وهم يتحلون به ويذهبون الى الشعاب فيصلون ، وأمره الله أن يصدع بما يؤمر . فنادى في الناس بأمره ودعا اليه (وكان بين ماأخفى أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه)

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه . وقارع أعداءه بالحجة وناصلهم بالدليل ، وأبدى لهم نصحه وزجره ، وذكر آلهتهم بالسب وعابها ، وكل من حوله ممن أسلم مستخف . وأعداؤه يردون دعوته وهم بادون ظاهرون ؛ ويرفضون رسالته وهم باغون معتدون . سواء العامة منهم والخاصة يقولون : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة والسلطان في قبيلهم لدعوة فقير أمي لا يسعى أن يتطاول الى هذه المقامات بالممكن من الكلام ؟ فكيف باللوم والتعسف وسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها ؟

أجمعوا على خلافه وعداوته ، وقام عمه أبو طالب دونه محاميا يحدب عليه ويمنع ، وهو ماض على أمر الله لا يرده عنه شيء . فلما رأت قريش ذلك مشى رجال من أشرافها إلى أبي طالب يقولون له : ان ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فاما أن تكفه عنا . واما أن تخلي بيننا وبينه ، فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب . قولا رفيقاً ، وردهم ردا جميلا . فانصرفوا ورسول الله على ماهو عليه يظهر دين الله ويدعو اليه . ثم شري الأمر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا . وحض بعضهم بعضا . ومشوا الى أبي طالب مرة

أخرى يقولون الذى قالوه أولا ، ويخبرونه بأنهم قد استنهوه ابن اخيه فلم ينهه ، وأنهم لا يصبرون على هذا الأمر العظيم ، فاما كفه عنهم أو نازلوه .

أصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم ، وبين خدلان ابن أخيه ، فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر مالا يطيق . ولكن القوة الالهية أيدته فأيأسهم من نفسه وقال لأبى طالب : ياعماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، وشمل الاشراق النبوى عمه أيضاً فقال له : يابن أخى قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم فى دينهم وافترق أمر قريش فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى ، واشتد العذاب على المسلمين فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا

صار النبى غريبا فى شعبه وقومه ، بعيدا عنهما ، يحول بينه وبين عشيرته ماهو أعظم من كل عظيم . وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم ، وهم أبعد من أن يفقهوا دعوته أو يعقلوا رسالته . وطفقوا يرمونه عند الناس ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر . يرومون بذلك صدهم عن الدخول فى دين الله ، وجلسوا للناس فى المواسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه منه وذكروا له أمره ، فأذاعوا الدعوة للدين من حيث أرادوا كتمانها ، وأعلنوا خبرها بين العرب وهم يصدونهم عنها « والله مخرج ما كنتم تكتمون »

ثم اشتد الأمر وأغرت قريش سفهاءها برسول الله وانتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والايذاء ، وتعاقدوا على قتله فى اللات والعزى . ولم يبق رجل الا وقد عرف نصيبه من دمه الشريف ورسول الله ظاهر بمظهر الحكيم فى تربية قومه بحال يدهش المشاعر ، إذ يجدون منه سلطانا قاهرا فى حكمه . عادلاً فى أمره . شديد الحرص على مصالحهم . رؤوفا بهم فى شدتهم . رحبا فى سلطته وكيف لا تتحير الحواس وهم يرون قوة من ضعف . وسلطانا من عجز . وعلما من أمية ، ورشاداً من منبت جاهلية

حارت قريش فى أمرها . تعجب من صبرها على سفهه أحلامها [illegible]

وسب آلهتها وإهانة دينها ، فاجتمعت اشرافها فى الحجر يتشاكون الصبر على هذا الأمر . فطلع عليهم رسول الله فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت ، وكلما طاف غمزوه ببعض القول فوقف ثم قال : (أتسمعون يامعشر قريش أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح) فأخذت القوم حالة حتى مامنهم الا كأنما على رأسه طائر واقع وأشدهم فيه وطأة صار يرفؤه بأحسن مايجد من القول (يقول : انصرف ياأبا القاسم ما كنت جهولا) ثم يعودون على أنفسهم باللائمة ويذكرون مابلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه . فبيناهم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا له وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم وهو يقول : نعم . فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه فدنا أبو بكر دونه وهو يقول : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) ووقف أبو جهل لرسول الله وشتمه وبلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه

أرادت قريش أن تحاججه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل فبعثت اليه عتبة ابن ربيعة وكان سيداً فى قومه فقال : إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمعهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أموراً لعلك تقبل منها بعضها فقال له رسول الله : قل ياأبا الوليد . قال : إن أردت بالذى فعلت (مالا) جمعناه لك أو (شرفا) سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وان كان يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإن أفرغت ياأبا الوليد ؟ قال نعم فأسمعه آيات من سورة السجدة وسجد . فقام عتبة الى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به فقالوا له ماوراءك ياأبا الوليد ؟ قال ورائى انى سمعت قولا ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة أطيعونى يامعشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه . [illegible] يكون لقوله الذى سمعت نبأ قالوا . (سحرك ياأبا الوليد) فقال لتجمع [illegible] كل [illegible] عند ظهر الكعبة وبعث اليه فقعلوا . فجاءهم حتى جلس اليهم فقالوا [illegible] رجلا من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت إلى [illegible] ماقال له عتبة [illegible] حتى لا نطلب أموالكم ولا

ان أ كون لبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . فأجابهم بهذا الخطاب وأفحمهم بهذا الكلام

فعلت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا مافعله كفار كل زمان مع أنبيائهم ، فتطلعت لما هو أكبر كما هى العادة فى شره العقول . وأخذت تفكر وتقترح وتطلب أشياء قضت الحكمة الالهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها . تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لتنبسط ثراها . وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها . وتكلفه بأن يأتى بملك معه من السماء فيصادقه على مايقول . وتتهكم عليه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلا ، أو تكون له جنات وقصور وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه . فانصرف رسول الله الى قومه آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه

ان الناظر فى هذا الهذيان يحكم بأن الذى منع العرب من الاقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، لانهم يرون فى كل وقت ويسمعون فى كل حال من أحواله عجباً لم تجر به العادة أبداً ، وفيهم العقلاء وأهل الفطر الصحيح والمزاج المعتدل ومن يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله سبحانه وتعالى . فجاءهم رسول الله من الضرب الذى يسمحون فيه بأنفسهم . ويتنافسون فيه تبيان عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم . ويدعون أن [illegible] منهم فى كل أبوابه تبع . ألا وهو طريق البلاغة والفصاحة . [illegible] وفيهم الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع وهم أحكم [illegible] وأ[illegible] [illegible] سيد علمهم . فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله وتصديقه ، [illegible] وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب الذى لاريب فيه وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، ويدعوهم صباح مساء

بسورة واحدة أو بآيات يسيرة منه

كيف يمكن لأحد سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ولو كان من عند غير الله لكان من غلبة الظن عند من له شيء من العقل أن لا تخلو الارض من صاحب قوة مثله

عجزوا وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم وذوى قرابتهم وتسفيه أحلامهم وتفسيق معتقداتهم وكسر أصنامهم . أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضون قوله ويفسدون عليه أمره . ويسرعون فى تفريق أتباعه عنه صونا للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الأوطان العزيزة المحبوبة وانفاق الاموال الجزيلة . إن هذا لبعض ما يعرفه عامة الخلق فكيف بقريش التى لها من جليل التدبير وصدق الرأى والعقل ما ضربت به الامثال ؟

ماهذا العجز الظاهر ؟ وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام والحاجة تبعث الحيلة فى الأمر الغامض المفقود فكيف بالظاهر الموجود . محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين عاما على الغلط فى الأمر الجليل . ومحال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه

أى دليل على دعوى النبوة بعد هذا ؟ وأى برهان على صدقه صلى الله عليه وسلم أشد من أن يروا يتيما فقيرا أميا لا عون له ولا جاه ، وقد ربى بينهم وهو من أول نشأته وعقله متأثر بسماع ما يسمعه ممن يخالطهم منهم من جد الوثنية فإذا به معتصم لها من مبدإ عمره من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال . من قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال . من قبل أن يرجعه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان . ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ثم يكون منه الذى كان

يرون رجلا منصرفا بطبعه الحالى عن مناصب الملك والسلطان مأبياعهما وقد عرضا عليه — ومقابله لهما بذلك بالاعراض والاعراض — خاليا من

الجند والمال والجاه والعون ثم ينهض وحيدا فريدا داعيا للتوحيد والاعتقاد بالله ، وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لأوثانهم ومقدار تنطسهم في زندقتهم ومناوأتهم بمعبوداتهم . أليس من فكر يفكر فى هذه القوة التى سمت بنفسه الى أعلى عليين فجعلته داعيا مرشدا ولو كره الكافرون ؟

يرون داعيا أوذى بضروب الايذاء ، وأقيم فى وجهه مالا يذلل من الصعاب وعناية الله محيطة به . ويرون المستجيبين له أخرجوا من ديارهم ، تسفك منهم الدماء ، ويفتنون وهم لا يفتنون

يرون عارفا بالله كما يجب أن يعرف . مدركا من أمر الدار الآخرة ماينبغى أن يدرك مع كمال فى العقل ونور فى البصيرة فصل مهما اللذائذ والآلام فى هذه الدنيا وطرق الأجر والعقاب عليهما ، وجعل للانسان شعورا بيوم بعد يومه هذا . وكل هذا الضرب من الكلام بعيد عن التخيل والفكر ولا بد له من هدى الهى وفتوق فى البصر والبصيرة يؤديان الى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الأمور الغامضة عن العقول الساذجة

يرون حكيما جاء لكل طائفة مزيلا للرجس القائم بها ، مخلصا لها من معارض الشرك المشتمل عليها ، يأمر الوثنيين بترك الأصنام والأوثان ، والمتشبهة بالانصراف عن الأجسام ، والثانوية بالتوحيد ، والطبيعيين بالنظر الى ما وراء حجاب الطبيعة ، وأهل السيطرة بترك العقوق ، ليعلمهم أنهم لا يتفاوتون عن كل نفس الا بما فضل الله من علم وفضيله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

يرون ناصحا يأمرهم بصدق الحديث وأداء الامانه والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وصله الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم واحترام [illegible] البشرية والاعراض والرحمه بالضعفاء ، ونهاهم عن الفواحش وقول الزور [illegible] مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم يرون أنفسهم عبادا الأصنام (وهو [illegible]) يأكلون الميتة (وهو بعيد عنها ويأتون الفواحش وهو برىء منها) ويقطعون الأرحام (وهو يصلها) ويسيئون الجوار (ويحسنه) ويسلبون [illegible] الأموال (وهو يأمر بالكف عنها) فكأنهم كانوا [illegible]

لايكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل والحسن والقبح) وهو بهذا الظهور عماهم عليه من صدق الاحلام « انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلوا بلدا (الحبشة) أصابوا به مأمنا وقرارا . وان النجاشي أكرم من لجأ اليه منهم . وان عمر بن الخطاب أسلم وأعز الله الاسلام باسلامه وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . والاسلام أخذ يفشو فى القبائل ، فاجتمعوا واتمروا وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب أن لا ينا كحوهم ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم . وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيدا لانفسهم . وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب الى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه (الا أبا لهب) وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل اليهم شىء الا سرا مستخفيا به من أراد صلتهم ورسول الله يدعو قومه ليلا ونهارا سرا وجهارا ماديا بأمر الله لا ينقى فيه أحدا من الناس وحال رحال الله بينه وبين ما أرادت قريش من البطش به وان همزوه أو استهزؤا به أو خاصمه ه نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة وان الله سلط الأرضة عليها فلم تدع فيها اسما هو لله الا أثبته وبقى منها الظلم والقطيعة والبهتان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لابى طالب فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال نعم . فخرج إلى قريش فقال : يامعشر قريش ان ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ـ وذكر ماقاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فهلموا إلى صحيفتكم فان كانت كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها . وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخى فقال القوم : رضينا وتعاقدوا على ذلك . ثم نظروا فاذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شرا . فصنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا

ثم أسرى برسول الله [illegible] من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى ـ وهو بيت المقدس ايلياء ـ فلما أخبر [illegible] صلى الله عليه وسلم الناس بها عجبوا وقالوا

له إنما آيةذلك يامحمد ؟ فدلهم على أشياء فى الطريق، وأمارات ظاهرة سالوا عنها فوجدوها كما قال . ولكن أبى الله أن يصدقوه وهو صادق ،أو يعلموا أنه على الحق وانهم كاذبون

ثم أقام رسول الله على أمر الله محتسبا مؤديا الى قومه النصيحة على مايلق منهم من التكذيب والايذاء والاستهزاء وقريش تتنقل معه فى طريق الاذى من باب إلى باب ، وتتقلب من فكر إلى فكر . فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء إلى النفاق والرياء ونيل منى النفس بالكيد والمداهنة باقية على مافيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور والاسواء شق عليها أن ترى مثل أبى بكر يقرأ القرآن ويبكى فما زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجراً خوف الفتنة وقطعاً لدريعة انتشار الاسلام بين العرب

ثم ماتت خديجة وأبو طالب فى عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموتهما ونالت قريش فيه من الاذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب . فخرج رسول الله وحده إلى الطائف يلتمس النصرة من « ثقيف » فلما عمد إلى سادتهم استهزؤا به وكذبوه فعاد الى مكة ، وقومه أشد ماكانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، وأصحابه مستضعفون ، وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل فأتى « كندة » فى منازلهم فلم يقبلوه . و« بنى حنيفة » فدعاهم فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم. وأتى « بنى عامر » فاستهزؤا به

ثم كان الموسم الذى لقى فيه النفر من الانصار وعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج وعرض عليهم الاسلام فآمنوا به وصدقوه ، لانهم وجدوه موافقاً لما أخبرهم به أهل الكتاب والعلم من قومهم ، وقدموا المدينة وذكروا لقومهم مارأوه ودعوهم الى الاسلام وفشا فيهم . ولم يبق دار من دور الانصار الا وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان العام المقبل فوافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا و [illegible]

صلى الله عليه وسلم وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الاسلام ويتلو عليهم القرآن

ثم تواعدوا مع رسول الله ، فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاده يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلا . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه العباس فبعد أن تكلم وتكلموا فى أن يحموه حمايتهم لنسائهم وأبنائهم وماهم بخاذليه ولا مسلميه أبدا أخرجوا منهم اثنى عشر رجلا سماهم رسول الله نقباء وقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى (يعنى المسلمين) قالوا نعم

ثم عرفت جلة قريش بالأمر وتنطست ، ووجدت الخبر كما ظنت فخرجت فى طلب القوم فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكلاهما كان نقيبا . فأما المنذر فأعجز القوم . وأما سعد فأخذوه الى أن دخلوا به مكة يضربونه حتى استجار برجلين فأجاراه فانطلق ولحق القوم فلما قدموا المدينة أظهروا الاسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سليمة وشريف من اشرافهم ، وكان اتخذ فى داره صنما من خشب فما زالوا به حتى كسره وأسلم

علمت قريش بتبيعة رسول الله وانصاره ، وادركت انه مجمع على اللحاق بهم ، وتحقق أن أصحابه من المهاجرين سبقوه فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فيما تصنع فقالت : نحبسه ولا نخرجه . ثم اتفقت على أن يقوم من كل قبيلة فتى شاب جلد فيقتلونه جميعا ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم

أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكيدهم هذا ، فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده . ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله على أبصارهم فوضع على رءوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم . فلما أصبحوا خرج عليهم على وعلموا أن النبى صلى الله عليه وسلم نجا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مهاجرا من خوخة فى دار أبى بكر

تعددت معجزاته فى سنة هجرته فما أن هاجر وأبو بكر دخلا الغار الذى فى

جبل ثور بأسفل مكة فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف فوقف عند الغار وقال ها انقطع الأثر ، واذ بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا .
ومنها أن سراقة اتبعهما ليردهما ، فلما رأياه دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه فى الأرض فنادى بالأمان وقال : يا محمد ادع الله أن يخلصنى ولك علىّ عهد أن أرد عنك الطلب فدعا له فخلص ـ فعل ذلك معه مرتين أو ثلاثا ـ فلما أراد أن يعود قال له رسول الله كيف بك ياسراقة اذا سورت بسوارى كسرى قال كسرى بن هرمز ؟ قال نعم (١)

ومنها أنه لما وصل المدينة مر بدور لبنى سالم وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى حارثة . وكلما مر بدار لاحد من هؤلاء تلقاه رجال منها يرغبون أن يقيم عندهم وتبادروا خطام الناقة اغتناما لبركته ، فما زالوا يتبادرون والنبى صلى الله عليه وسلم يقول لهم : خلوا سبيلها فانها مأمورة حتى أتت دار بنى مالك بن النجار فبركت حيث مسجد الرسول اليوم . ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها ، ثم التفتت الى مكانها الأول فبركت واستقرت ونزل رسول الله وحمل أبو أيوب رحله الى داره فاشترى المربد من بنى النجار بعد أن وهبوه إياه فأبى قبوله ، وبنى المسجد باللبن وعضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد ، وبنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه ما لهم وعليهم . وآخى بين المهاجرين والانصار . بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل . وبين أبى بكر الصديق وخارجه . وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الانصار

ثم فرضت الزكاة فاسلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء . وتخلصت الصدور من الاحقاد ، وأشعرت بالمحبة . وأصبحت [illegible] لرحمة أولئك البائسين، وأصبح الغنى مدافعا عن نفس الفقير . و[illegible]

---

(١) قال فى أسد الغابة فى ترجمة سراقة فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته [illegible]
وقال له ارفع يديك وقال الله أكبر [illegible]

بيد الضعيف

ابتدأت الغزوات فى شهر صفر بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم فخرج الى غزوة (الابواء) فى مائتين من أصحابه يريد قريشاً و(بواط) لما بلغه أن عيرا لقريش ذاهبة الى مكة. ثم غزوة (العشيرة) غازيا لقريش و(بدر الأولى) وفى كل ذلك لم يلق حربا. وبعث فيما بينها بعوثا: فمنها (بعث حمزة) و(بعث عبيدة ابن الحرث) متقاربين حتى اختلف فى أيهما كان الأول الا أنهما أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولم يكن بينها وبين المشركين قتال) و(بعث سعد بن أبى وقاص) و(بعث عبد الله بن جحش) وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين (١) فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل نخله بين مكة والطائف ولا يستكره أحدا فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان بعير فتخلفا فى طلبه فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة وذلك آخر يوم من رجب فتحرج بعض المسلمين الشهر الحرام ثم اتفقوا. وقتل عمرو بن الحضرمى وأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وقدموا بالعير والاسيرين فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم ذلك فى الشهر الحرام وما سرى عنهم حتى أنزل الله «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به» فقبض النبي صلى الله عليه وسلم الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء فى الاسيرين. وأسلم الحكم بن كيسان ورجع سعد وعتبة سالمين الى المدينة. وهذه أول غنيمة غنمت فى الاسلام وأول غنيمة خمست

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة وخطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الانصار ونزلت آية «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب» كان من قود دها العقل وأصالة الحكم أن تسر جماعة المشركين ذلك فى نفسها فلا يقدم له ... عن صرف القبلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذى لقنه

(١) [illegible]
[illegible]

به بارثه لان فى سكوتها تكذيبه وبطلان حجته ، وهم بذلك مغرمون اليه مضطرون وفى السؤال عنه تصديق لخبره فى اظهار سر القهر الالهى المحيط بهم الملجىء لهم على السؤال . ولو كان فى ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ولكنهم فعلوه لأن الخبر السماوى والوعد النبوى لا يتخلفان قطعاً

هاج مقتل عمرو نفوس قريش وشعر كل طرف بيوم بعد يومه . فأقام رسول الله بالمدينة الى رمضان من السنة الثانية ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال مقبلة من الشام الى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلا (عميدهم أبو سفيان) فندب عليه السلام المسلمين الى هذه العير ، وأمر بخروج كل من له ظهر حاضر ولم يحتفل فى الحشد لأنه لم يظن قتالا

اتصل خروجه بأبى سفيان فاستنفر أهل مكة لعيرهم فنفروا ، وبعث رسول الله من يتحسس أخبار أبى سفيان وعلم ان القوم صاروا بين التسعمائة والألف فاستشار الأصحاب من المهاجرين والانصار فقالوا وأحسنوا . قالوا (لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك)

عرف أهل قريش بمقدم المسلمين أيضا ولكنهم مع كثرتهم هذه أصبحوا لا يشتدون على مقاومتهم كأنما أصاب مكان الوجدان من قلوبهم شىء . ولم يكف أبو سفيان أنه تنكب بالعير الى طريق الساحل ونجا . بل جد فى حمل الناس على مذهبه فقال : (ما بالنا لا نرجع وقد نجونا بالعير) ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعا فيهم وقال : (انما خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فارجعوا) فرجعوا ولم يشهد بدرا من قريش عدوى ولا زهرى

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع ، ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب ويهيج عواطف إحساساتهم يقول : (لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثا وتهابنا العرب)

سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وبلد ما يليهم وأصاب مما يلى المسلمين دهس الوادى وأعانهم على السير . ثم نزل حسب أمر الحباب بن المنذر وبنوا حوضا فملؤوه ثم بنوا له عريشا يكون فيه رسول الله

ومشى بزبهم مصارع القوم واحداً واحداً وكان أصحاب رسول الله ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فيهم فارسان الزبير والمقداد

توافقت الفئتان وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع الى العريش : وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها . فلما رآها قال . (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم احنهم الغداة)

ما زال الكلام يستوثق الناس على الشر (وان الحرب أولها الكلام) حتى قام عامر وصرخ واعمراه واعمراه ، فحميت الحرب ونادت الرجال على الرجال ، والنبى يدعو ويلح ويقول فى دعائه : (اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض اللهم انجز لى ما وعدتنى) ثم أخفق (١) ثم انتبه فقال : (أبشر يا أبا بكر قد أتى نصر الله) ثم خرج يحرض الناس ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : (شاهت الوجوه) ثم تزاحموا وحال القوم جولة هزم المشركون فيها وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم وأسر نحواً من عشرين من جلاس كبرائهم كما هو مذكور تفصيله فى كتب السير . واستشهد من المسلمين ثمانية : خمس من المهاجرين ، وواحد من الانصار ، وواحد من الأوس ، وواحد من الخزرج . وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله ورجع رسول الله الى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان

حملهم على حطهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعد أن دعاهم بالحجة وقطع العذر وأزال الشبه . وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة كما قدمنا ، فأخذ السيف منهم ما أخذ

ثم افتدت قريش أكثر أسارى بدر . وأمر بقتل كعب بن الأشرف من أكابر اليهود ، وكان من المحرضين على رسول الله فقتله الأوس . ثم وقعت غزوات لم يلق فيها رسول الله حربا وهى (غزوة الكدر) و (السويق) و (ذى أمر) و (بحران)

---

(١) أخفق فلان حرك رأسه من نعس

تظاهر اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين وبغوا ونقضوا العهد وجاهروا بالكفر وقالوا وأساؤا الرد ونبذوا العهد فأنزل الله « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » فكانت (غزوة بنى قينقاع) سار اليهم رسول الله وكانوا فى طرف المدينة فى سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لايكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فأمر بهم أن يقتلوا فشفع فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول فحقن رسول الله دماءهم ثم أجلاهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وصاع ولحقوا بخيبر وأخذ صلى الله عليه وسلم الخمس من الغنائم ثم انصرف الى المدينة وحضر الاضحى فصلى بالناس فى الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال انهما أول أضحية صلى الله عليه وسلم

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال ، وأتت بفرات بن حيان العجلى أسيراً فتعوذ بالاسلام وأسلم . وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفا

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن أبى الحقيق) وكان نظير ابن الاشرف الذى قتله الأوس فى الكفر والعداوة فأذن لهم فقتلوه فى داره بخيبر وما زال الاوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين فى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئاً من ذلك الافعل الآخرون مثله

ثم كانت غزوة « أحد » وكان الذى أهاجها وقعة بدر فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم بها ، فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ليدركوا الثأر

اجتمعت قريش بأحابيشها (١) ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة . وكان أبو سفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين فلما علم بذلك رسول الله أشار على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وان جاؤا قاتلوهم على أفواه الازقة وألح قوم من فضلاء المسلمين ممن [illegible]

---

(١) أحابيش قريش جماعة تحالفوا [illegible]

وخرج . وقال آخرون يارسول الله ان شئت فاقعد . فقال : ماينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل . وخرج فى ألف من أصحابه ، فلما كانوا بين المدينة و « أحد » عاد عبدالله بن أبى بثلث الناس وكان من تبعة أهـــل النفاق وبقى رسول الله فى سبعمائة فيهم خمسون راميا فساروا حتى نزل الشعب من « أحد » وجعل ظهره وعسكره اليه والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع وفى المسلمين مائة وفرسان : فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرس لابى بردة . وقاتل المسلمون واشتد القتال وانهزمت قريش أولا ، ثم خلت الرماة عن مراكزهم وكر المشركون كرة ، وقدفقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه الله ووصل العدو الى رسول الله وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل . وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته السفلى ، وكلم فى وجنته ووجهه فى أصول شعره ، وعلاه ابن قمئة بالسيف ، وهشمت البيضة فى رأسه ، وأكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى بعض حفرهاك فأخذ «على» بيده واحتضنه طلحة حتى قام ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح فبدرت ثنيتاه وكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المسلمين فقتلوا كلهم آخرهم عمار بن يزيد ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يلى النبى بظهره وتقع به النبلة فلا يتحرك . وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة وقد دهشوا وقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فما تصنعون فى الحياة بعده قوموا فموتوا على مامات عليه . ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة وجرح وقتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم

وهن المسلمون وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل . واذا كعب ابن مالك الشاعر من بنى سلمة يبشر الناس فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب . ثم جاء بماء فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ونهض فاستوى صخرة من الجبل . وكانت حانت الصلاة فصلى بهم قعودا وغفر الله للمنهزمين

ونزلت آية « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان » . ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونادى الحرب سجال يوم أحد ببدر وانصرف وهو يقول : موعدكم العام القابل فقال عليه السلام : قولوا له هو بيننا وبينكم ، ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والمشركون الى مكة

مثل المشركون فى هذه الواقعة بسيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه وبقرن عن كبده ولاكتها ولم تسغها ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فى حمزة وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنها الزبير أن يردها لكيلا ترى ما بأخيها فلقيها وأعلمها فقالت (بلغنى أنه مثل بأخى وذلك فى الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن) ، ثم أتته وصلت عليه واسترجعت وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به فدفن

إن بعض هذا الصبر لما تضعف العزائم البشرية عن احتماله ، وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده ، ولكن الهدى هدى الله

ثم أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبيحة يوم أحد بالخروج لطلب العدو وأنه لا يخرج الا من حضر معه بالأمس فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والنصب ، وصار عليه السلام متجلدا مرهبا للعدو حتى انتهى الى حمراء الاسد وأقام بها ثلاثا ، وبلغ أبا سفيان وكفار قريش ذلك وكانوا يرومون الرجوع الى المدينة ليستأصلوا المسلمين بزعمهم ، ففت ذلك فى أعضادهم وعادوا إلى مكة .

ما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، وأدركهم قصم الظهر واستيلاء النحس بعد أن كانوا من الزعم بأنفسهم فى شأن أريد مما يليق بالنفوس [illegible] مال المشركون بعد هذه الحروب الى الكذب والمراوغة [illegible] فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر تمام [illegible] وذكروا أن فيهم إسلاما ورغبوا أن يبعث فيهم من [illegible]

ستة رجال من أصحابه حتى إذا كانوا قريبا من عسفان غدروا بهم ، ومنهم من قتل هناك ، ومنهم من حمل الى مكة وقتل صبرا ، وكذلك قتلوا بعث المنذر بن عمرو من بنى ساعدة وهم أربعون من المسلمين وقيل سبعون . طلب ملاعب الأسنة أبو براء عامر بن مالك أن يبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم الى نجد ، فبعد أن تردد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو براء : أنا لهم جار فسار وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فقتله ولم ينظر فى كتابه . واستعدى عليهم وقتلوهم عن آخرهم

ثم نهض رسول الله الى (غزوة بنى النضير) وأرادوا يؤذون رسول الله ويصعدون الى ظهر البيت رجلا ليلقى على النبى صخرة ، فأوحى الله اليه بما أراد به اليهود ، وتهيأ لحربهم فتحصنوا بالحصون فحاصرهم ست ليال ، وانتهت بالكف عن دمهم واجلائهم لخيبر بما حملت الابل من الاموال الا السلاح ، ثم كانت (غزوة ذات الرقاع) ، و (غزوة بدر الموعد) التى خرج فيها رسول الله لميعاده واعتذر أبو سفيان بجدب العام ، و (غزوة دومة الجندل) ولم يلق المسلمون فى كلها حربا ، ووادع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن أن يرعى بأراضى المدينة لأن بلاده أجدبت وهذه أخصبت

ثم كانت غزوة الخندق وسببها خروج جماعة من اليهود الى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ويرغبون من انتدب الى ذلك بالمال فأجابهم أهل مكة . وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب فى ١٠٠٠٠ آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم . فلما سمع رسول الله أمر بحفر الخندق وعمل فيه بيده والمسلمون معه ، وأقبلت الاحزاب ونزلوا بظاهر المدينة بجانب أحد وخرج عليه السلام بالمسلمين والخندق بينه وبين القوم ونقضت بنو قريظة العهد ، وكانوا موادعين ، فعظم الأمر ، وأحيط بالمسلمين من كل جهة ، ودام الحصار شهرا ولم تكن حرب . ثم بعد أن اشتد الحال أتى رجل اسمه نعيم ابن مسعود بن عروة وقال : يا رسول الله أنا أسلمت ولم يعلم بى قومى فمرنى بما تشاء فقال : إنما أنت رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ، فخرج

يدبر فى أمره فأتى بنى قريظة وكان صديقهم فنقم لهم فى قريش وغطفان وقال لهم : انهم ان لم يظفروا لحقوا ببلادهم وتركوكم ولاتقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه ، فاستوثقوا منهم برهن ابنائهم حتى يصابروا معكم . ثم أتى ابا سفيان فى قريش وقال : ان اليهود ندموا وراسلوا محمدا فى المواعدة على أن يسترهنوا ابناءكم ويدفعوهم اليه . ثم أتى غطفان وقال لهم مثلما قال لقريش

دخل بين القوم من باب الاختلاف والمشاقة فيما اتفقوا عليه فأرسل أبو سفيان وغطفان الى بنى قريظة فى ليلة سبت يقول : انا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال . فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا : ومع ذلك لانقاتل حتى تعطونا ابناءكم فصدق القوم خبر « نعيم » وردوا اليهم (بالاباية من الرهن والحث على الخروج) فصدق أيضا بنو قريظة خبر « نعيم » وأبو القتال فكان هذا الكلام عند هبوب ريح التخالف من أعظم وأكبر الاسباب التى تراجعت بها القلوب الى نقض العهود ، ولم يقف الحال عند ذلك بل أرسل الله على قريش وغطفان ريحاً عظيمة اكفأت قدورهم وآنيتهم ، وقلعت أبنيتهم وخيامهم ، فأصبح المسلمون وقد ذهب الأحزاب . ثم نهض رسول الله الى (بنى قريظة) بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم ، فأمر المسلمين أن لايصلى أحد العصر الا فى بنى قريظة وأعطى الراية علىّ بن أبى طالب ، وبعد أن حاصرهم خمساً وعشرين ليلة ضربت أعناقهم وقسمت أموالهم ، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً

ثم كانت غزوة الغابة وذى قرد . وكان سببها أنه بعد قفول المسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزارى فى بنى عبد الله من غطفان على لقاح النبى صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وكان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوه وحملوا المرأة ووقعت الصيحة بالمدينة ، وركب رسول الله فى أثرهم حتى أدركهم فكانت بينهم جولة قتل فيها من قتل ، ثم ولى المشركون منهزمين . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء يقال له (ذو قرد) ، فأقام عليه ليلة ويوماً . وبعد نافه من لقاحه المسترجعة ، ثم قفل الى المدينة

أقام رسول الله الى شعبان من السنة السادسة وغزا (بنى المصطلق) من خزاعة . لما بلغه من أنهم مجتمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جويرية أم المؤمنين ، فخرج اليهم ولقيهم بالمريسيع من مياههم فتزاحفوا وهزمهم الله .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السادسة وفى ذى القعدة منها معتمراً (عمرة الحديبية) ، واستنفر الأعراب وساق الهدى ، وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لايريد حربا ، وبلغ ذلك قريشا فأجمعوا على صده من البيت وقتاله دونه . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة بركت ناقته وقال الناس : خلأت فقال : ماخلأت وماذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم جرت السفراء بين رسول الله وبين كفار قريش ، وقاضى رسول الله على أمور : ينصرف عامه ذلك ، ويأتى من قابل معتمرا . ويدخل مكة والسيوف فى القرب فيقيم بها ثلاثاولا يزيد . يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويأمن بعضهم بعضاً . من هاجر من الكفار الى المسلمين من رجل أو امرأة يرد الى قومه ، ومن ارتد من المسلمين لايرد .

انبهم هذا الأمر على المسلمين ، وكبر عليهم ، وتكلم فيه بعضهم ، شأننا فى عالم الشهادة وعدم اهتداء الافكار الى كشف الغائب من الامور الا بهدى واشراق مخصوص

اهتدى النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الصلح ، وعلم انه سبب لأمن الناس وظهور الاسلام . وأن الله سيجعل فيه فرجاقريباً للمسلمين . وهو أعلم بما علمه ربه

كتبت الصحيفة كما قالوا (ولم يذكر فيها رسول الله) . ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف فى قيوده فرده رسول الله الى أبيه . وأخبره أن الله سيجعل له فرجا .

وبينماهم يكتبون الكتاب عنه جاءت أيضا سرية مابين الثلاثين والاربعين يريدون الايقاع بالمسلمين فأعتقهم رسول الله . واليهم ينسب العتيقيون

عظم هذا الأمر على المسلمين من كل وجه . حتى انهم أغضبوا النبى صلى الله عليه وسلم فى عدم متابعته أولا عند ما أمر بالحلق والنحر ثم نحر فتابعوه .

ورجع رسول الله الى المدينة معتمر

مافتح الله بفتح قبل هذا أعظم منه أبدا . كان القتال سدا فى وجوه القوم فلا تلتق الناس دونه ، ثم كانت هذه الهدنة والناس على شوق من أن يأخذوا لأنفسهم بالأحوط ، فما بشروا باطلاق هذه الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضا حتى التقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالاسلام أحدا . أو يرشده اليه الا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين فى الاسلام مثلما كان قبل ذلك وأكثر . وأعجب منه رد (من يهاجر من الكفار الى قومه) ، (ومن ارتد من المسلمين لا يرد) خفى عليهم أيضا أمره ، ولم يدركوا أن رد المسلم المهاجر الى العرب داع لانتشار الدين بينهم ، لأنه مسلم ولا يزايل قلبه الاسلام أبدا ، ومانع للنظر فى مكنون أسرار المرتد من المسلمين ليعلم ماهو عليه وهو بعيد عن محابس الخشية وخالص من قيود الأوامر والنواهى ، فيعلم الناس المنافقين . ويعلم النبى من يبصره بالغيب

ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم رجالا من أصحابه الى ملوك العرب وسلاطين العجم : فبعث سليط بن عمر الى صاحب اليمامة . والعلاء بن الحضرمى الى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى صاحب عمان ، وحاطب بن أبى بلتعة الى صاحب الاسكندرية ، وشجاع بن وهب الى صاحب دمشق . وعمر بن أمية الضمرى الى النجاشى

وكتب الى كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه استكبارا . فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم مزق ملكه كل ممزق (وكان ذلك) فقد جزأ الله أصله ، وقطع دابره ، لأن كل ملك أخرج من معظم ملكه يقيم على بقيه منه . ولكن الاسلام لم يترك لهذا الملك ملكا تبا له الحوافر والاقدام الا أزاله عنه . ثم كتب كسرى الى « باذان » عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إلى النبى رجلين جلدين من عنده يأتيان به ، فبعث اليه بقهرمانه وآخر معه ، فلما قدما على النبى صلى الله عليه وسلم جاءه الوحى بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ليلة كذا من شهر كذا فأخبرهما وقال لهما : (ان دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى [illegible]) فانصرفا وأخبرا « باذان » الخبر . ولم يلبث « باذان » [illegible]

بقتل كسرى . وهكذا دعواته المستجابة حين مالقى من شدة أذى العرب وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال ، دعاالله عز وجل أن يجدب بلادهم ، وأن يدخل الفقر بيوتهم فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم سنين كسنى يوسف اللهم اشدد وطأتك على مضر . فأمسك الله عز وجل المطر عنهم ، حتى مات الشجر ، وذهب الثمر ، وقلت المزارع حتى اذا بلغت الحجة مبلغها ، وانتهت الموعظة منتهاها ، عاد بفضله فسأل ربه الخصب وادرار الغيث ، فأتاهم منه ماهدم بيوتهم ، ومنعهم حوائجهم فكلموه فى ذلك فقال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فأمطر الله عز وجل ماحولهم وأمسك عنهم

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم غازيا الى خيبر ، وحال الله بين غطفان وبين يهود خيبر برعب قذفه فى قلوبهم فأقعدهم فى مكانهم بعد أن كانوا أرادوا مددهم ، وافتتح رسول الله حصون خيبر حصنا حصنا ، وبعض خيبر عنوة ، وبعضها وهو الأكثر صلحا على الجلاء . فقسمها رسول الله وأمر اليهود أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف فى كل ما يخرج

وفى هذه الغزوة أهدت اليهودية زينب بنت الحرث امرأة سلام الى النبي صلى الله عليه وسلم شاة مصلية ، وجعلت السم فى الذراع منها وكان أحب اللحم اليه ، فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال : ان هذا العظم يخبرنى أنه مسموم ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمة فمات منها ، ثم اعترفت اليهودية ودفعت لأولياء دم بشر فقتلوها

ثم قدمت مهاجرة الحبشة الى مكة وهاجروا منها الى المدينة وفيهم جعفر بن أبى طالب ، وكان يوم فتح خيبر فقبل ما بين عينيه والتزمه وقال ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر

اتصل بشأن أهل خيبر بأهل فدك ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يتركوا الأموال فأجابهم الى ذلك فكانت خالصة لرسول الله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله ، ثم افتتح وادى القرى عنوة ، وقسمها ورحل الى المدينة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خيبر الى انقضاء شوال من السنة السابعة ، ثم خرج فى ذى القعدة لقضاء العمرة التى عاهدته عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح . وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ورسوله وكرها فى لقائه ، فقضى عمرته وتمت الثلاث التى عاهدته قريش على المقام بها ، وأوصوا اليه بالخروج وأعجلوه

أمضى عهده صلى الله عليه وسلم ، وخرج وأقام بعد منصرفه من هذه العمرة الى جمادى الأولى من السنة الثامنة ثم بعث الامراء الى الشام وأمر على الجيش ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف مولاه (زيد بن حارثة) وقال : وان أصابه قدر فالأمير (جعفر بن أبى طالب) ، فان أصابه قدر فالأمير (عبدالله بن رواحة) ، فان أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرا عليهم ، وشيعهم صلى الله عليه وسلم

هذه الغزوة هى التى مثلت المساواة بين أفراد الصحابة فى الشجاعة ، وكادت أن ترفع من بينهم الامتياز (الا بما فضل الله) ، فقد ظهر الكل فى معرض الشجاعة متجردين عن حب الحياة الدنيا غير غافلين عن شأن الله فيهم ، فأقاموا الدين وما تفرقوا فيه شيعا

انتهى هذا الجيش الى معان من أرض الشام ، فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل بأرض البلقاء فى ١٠٠٠٠٠ فارس من الروم و ١٠٠٠٠٠ فارس من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم . فأقام المسلمون فى معان ليلتين يتشاورون فى الكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتظار أمره ومدده . ثم قال لهم عبد بن رواحة أنتم انما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا الى جموع عدوكم ورتبوا الميمنة والميسرة واقتتلوا فقتل (زيد بن حارثة) ملاقيا بصدره الرماح والراية فى يده . فأخذها جعفر بن أبى طالب فعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذها بيساره فقطعت كذلك . وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة . فأخذها (عبدالله بن رواحة) وتردد عن النزول بعض التردد ، ثم صمم الى العدو فقتل

حتى قتل ، فأخذ الراية ثابت بن أقرم من بنى العجلان وناولها (لخالد بن الوليد) فانحاز بالمسلمين ، وقد استشهد منهم ما يزيد على العشرة أكرمهم الله بالشهادة

أنظر لهذه الحجج والقوارع العظمى ، ونداء العناية العليا من الجبروت الأعلى ، وأعجب لهـــذه الشجاعة التى وسعت كل شىء من القوى . ولتلك المعجزات الباهرة أنذر النبى صلى الله عليه وسلم باصابة وقتل هؤلاء الأمراء قبل يومهم هذا بمـا فيه مقنع لمن وهبه الله صحة العقل

كان اشتغال العرب بهذه الحروب شغلا شاغلا لهم نسوا به دماء بينهم فلما وقع صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضا . وفرغوا من مشاغل الحروب ، وحلوا الأغلال التى كانت أخذت بأيديهم ومالوا لادراك الثار

وكان من الدماء المسفوكة التى لم يتم فيها التنازع والتجالد دم بين بنى بكر وخزاعة مضت عليـــه الازمنة والأعصار ، حتى جاء الاسلام ودخلت خزاعـة فى عهد النبى صـلى الله عليـه وسـلم ودخلت بكر فى عهـد قريش فى صلح الحديبية

أراد الله ان يلوح من خلال هذا الظلم القديم نور فتح جديد مبين ، فقام رجل من بكر ينشد هجاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فسمعه رجـل من خزاعة فشجه . فهاج الشر بينهـم ، وانتقض العهد الذى بين قريش وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، فقدم وفد من قومهم مستغيثين برسول الله صلى الله عليـه وسلم بما أصابهم ، فأجاب صريخهم وأخبرهم أن أبا سفيان سيأتى يشد العقد ويزيد فى المدة . ولـكنه يرجع بغير حاجة ، وان الذى فعلته قريش ستندم عليـــه ، وسيكون ذلك سببا للفتح ، وكان ذلك جميعه

صدق الله رسوله ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد فى المدة فرجع بغير حاجة . ثم أعـلم رسول الله انه سائر إلى مـكة وأمر الناس بأن يتجهزوا ودعا الله أن يطمس الاخبار عن قريش . وكتب اليهم حاطب بن بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة إلى مكة . فأوحى الله اليه وبعث عليا والزبير والمقـداد الى الظعينة فأدركوها ، فأخرجته من بين قرون رأسها

خرج رسول الله لعشر خلون من رمضان من السنة الثـامنة في ١٠٠٠٠ نفس من قبائل من سليم ، وغفـار ، ومزين . وطوائف من قريش ، وأسـد ، وتميم ، وغيرهم من سائر القبائل وقال : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) فطوى الله أخباره عن قريش الا أنهم يتوجسون الخيفة . قال العباس : والله ان بغتها في بلادها فدخـل عنوة انه لهلاك قريش آخر الدهر ، وخشي تلاف قريش ان فاجأهم الجيش قبل أن يستأمنوا ، فركب العباس بغلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهب يتحسس ، وكان أبو سفيان وبديل ابن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر أيضا ، فسمع العباس صوت أبي سفيان وبديل ، وقد أبصرا نيران العسكر فيقول بديل : نيران بني خزاعـة فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل من أن تكون هـذه نيرانها وعسكرها فقـال العباس : هذا رسول الله في المسلمين أتاكم في ١٠٠٠٠ نفس قال : ماتأمرني به قال : تركب معي فأستأمن لك رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فوالله ان ظفر بك ليضربن عنقك ، فردفه خلفـه ونهض به الى المعسكر ، ومر بعمر رضي الله عنـه فخرج يشتد الى رسول الله يقول : الحمـد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد (١) فسبقه العباس على البغلة ودخل هو على أثره فقال : يا رسول الله هـــذا عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بلا عهد فـدعني أضرب عنقه فقال العباس :(قد أجرته) فزأر عمر فقال العباس : لو كان من بني عدي (٢) ولكنه من عبد مناف (٣) فقال عمر : والله لاسلامك كان أحب إلي من اســـلام الخطاب ، لاني أعرف أنه عنـد رسول الله كذلك . فأمر رسول الله العباس أن يحمله إلى رحله ويأتين به صباحاً . فلما أتى به قال له صلى الله عليه وسلم (ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله) فقال : (بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقـد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا) قال : (ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله) قال . (بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شيء) فقال له العباس : ويحك أسلم قبل أن

(١) يريد انتقاص عهد الحديبية (٢) جد سيدنا عمر بن الخطاب (٣) جد ..

يضرب عنقك فأسلم . فقال العباس : يارسول الله (إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً) قال نعم (من دخل دارأبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جنود الله ففعل ذلك ، ومرت به القبائل قبيلة قبيلة إلى أن جاء موكب رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم في المهاجرين والانصار عليهم الدروع البيض فقال : من هؤلاء ؟ (فقال العباس) : هذا رسول الله في المهاجرين والانصار (فقال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما) فقال : ياأبا سفيان انها النبوة (فقال : هي اذن ، أو قال : نعم اذن) ، ثم قال له : التحيء الى قومك فأتى مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبقول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أتى المسجد فهو آمن . الخ)

ثم رتب النبي صلى الله عليه وسلم الجيش ، وكان على الميمنة خالدبن الوليد ، وعلى الميسرة الزبير . وعلى المقدمه أبو عبيدة بن الجراح . وسرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش« من ذي طوى ،وأمرهم بالدخول الى مكة «الزبير» من أعلاها . «وخالد» من أسفلها ، وأن يقاتلوا من تعرض لهم .ولم يكن الاجولة وانهزم المشركون . وكان الفتح لعشر بقين من رمضان ؛ وأهدر دم جماعة من المشركين يومئذ أتت على أسمائهم كتب السير

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته . فدخل الكعبه ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت (١) ؛ وأمر بكسر الصور داخل الكعبه وخارجها . وبكسر الاصنام حواليها ، وأمر بلالا فأذن على ظهر الكعبه

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب الكعبة ثاني يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة ؛ ووضع مآثر الجاهلية الا سدانة البيت وسقاية الحاج ، وأخبر أن مكة لا تحل لأحد قبله ولا بعده ، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها

---

(١) هي في ولد شيبة الى اليوم

بالأمس ثم قال : لا اله الا الله وحده لاشريك له صدق وعده وصدق عبده وهزم الاحزاب وحده، ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى فى الجاهلية فهو تحت قدمى هاتين الاسدانة الكعبة وسقاية الحاج . ألا وان قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون فى بطونها أولادها

يامعشر قريش : ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

يامعشر قريش ويا أهل مكة ما ترون انى فاعل فيكم قالوا خير أخ كريم ثم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وأعتقهم على الاسلام ، وجلس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وبايع النساء سيدنا عمر ابن الخطاب .

مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله هـــذا (الكمال) فى أبلغ صوره ومنتهى درجاته بمقابلته كفران أهل مكة باحسانه وإنعامه على ان الذى لاقاه عليه الصلاة والسلام منهم من أول دعوته لحد هذا الفتح مما لا يسعه حلم ولا يحيط به كرم ، ولكن رسول الله أشفق الناس على أمته . نام فى فؤاده الشريف حب انقاذ الهالكين ، وارشاد الضالين منهم ، ولو أنهم كانوا من العناد بالمقدار الذى يبسوه أصحاب السير . قابلهم وهو فى أشد مظاهر القوة والعظمة بحلمه . وكرمه ، ولطفه ، وإحسانه ، وعفا عنهم . وكذا شيمته عليه الصلاة والسلام . وكفى بنعت الله له فى كتابه الكريم بقوله «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا خمسة عشر ليلة وهو يقصر الصلاة ، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون الى مكة وقد نزلوا (حنينا) ، فبعث النبى يستعلم خبر القوم فجاءه الرسول وأطلعه على جلية الخبر وأنهم قاصدون اليه ، فجهز رسول الله الجيش ومر به حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادى حنين ذو مضايق فى

غبش الصبح . وقد كمنت هوازن فى جانبيه . فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوى أحد على أحد وناداهم صلى الله عليه وسلم فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى ، والنبى على بغلته البيضاء والعباس آخذ بشكائمها فأمره رسول الله أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة وبالمهاجرين ، وكان جهير الصوت ، فنادى فاقتحمت الناس الرواحل راجعين ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة ، فاستقبلوا « هوازن » والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب وحمى الوطيس ، وقذف الله فى قلوب « هوازن » الرعب حين وصلوا الى رسول الله فلم يملكوا أنفسهم فولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه ، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم . واستحر القتل فى بنى مالك وثقيف .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والأموال فحبست ، وسار من فوره الى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة ورماهم بالمنجنيق . ثم انصرف رسول الله بعد ما دخل الطائف ، وجاءه وفد « هوازن » بالجعرانة وخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، ثم رد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم ، وقسم الأموال بين المسلمين وأعطى قوما يستألفهم على الاسلام يسمون المؤلفة مذكورون فى كتب السير يقاربون الأربعين

وجد الأنصار فى أنفسهم من ذلك ، فتكلم شبابهم مع ما كانوا يظنون أنه اذا فتح الله عليه بلده (مكة) يرجع الى قومه ويتركهم ، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال : انما أعطى قوما حدثى عهد الاسلام أتألفهم عليه أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير ، وتنصرفون برسول الله الى رحالكم . لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار ففرحوا .

اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة الى مكة ، ورجع الى المدينة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد — شابا ينيف على العشرين عليه الورع والزهد — وهو أول أمير أقام حج الاسلام وحج المشركون على مشاعرهم

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شهر رجب من السنة التاسعة وامر الناس أن يتهيؤوا لغز الروم ، وكان فى غزواته كثيرا ما يورى بغير الجهة التى يقصدها على طريقة الحرب الا ماكان فى هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب وبعد البلاد وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون . وتجهز الناس على مافى أنفسهم من استثقال ذلك والمنافقون لايفتؤون يثبطون الناس عن الغزو ، وتقدم كثير من المسلمين بالانفاق كسيدنا عثمان بن عفان فانه أنفق فيها ١٠٠٠٠ دينار ، وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس ، وجهز ركابا وجاء بعض المسلمين يستحملون النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجد مايحملهم عليه ، فنزلوا باكين لذلك . وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى تبوك فأتاه (صاحب آيله) . و(أهل جرباء وأذرعات) . فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتابا . وبعث خالد بن الوليد فصالح (دومة الجندل) على الجزية أيضا . ثم أسلم عروة بن مسعود ، وجاء وفد ثقيف بعد ماضيق عليهم مالك بن عوف ، واستباح رحمهم . وقطع سابلهم فأسلموا ، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص أصغرهم سنا لحرصه على الفقه وتعلم القرآن

ثم هدمت اللات والعزى : هدمها المغيرة بن شعبة وقام قومه من بنى معتب دونه خوفا من أن يرمى بسهم ، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها : وجاء أبو سفيان فأخذ حليها ومالها ، وقضى منه دين عروة والأسود بن مسعود [illegible] أمر رسول الله

كانت العرب تتربص بالاسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولان قريشا كانوا أمام الناس وهاديهم وأهل البيت [illegible] وصريح ولد اسمعيل وقادتهم لا ينكرون لهم ، وكانت قريش هى [illegible] لحربه وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت قريش ودخلها الاسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته فدخلوا دينه أفواجا [illegible] كل وجه مصداقا للخبر الالهى الذى لايتخلف « اذا جاء نصر الله والفتح [illegible] الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره [illegible]

ضربت اليه وفود العرب حتى سميت هذه السنة (سنة الوفود) ، وجاءته الكتب والرسل تترى من الملوك (كحمير) ، و (ابن ذى يزن) وغيرهما باسلامهم ومفارقة الشرك وأهله ، وكلما جاء وفد أكرمهم النبي صلى الله عليه وسلم وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم ؛ وبشرهم بالخير وأمرهم به ؛ وشدد عليهم فى الظلم ، ونهاهم عنه ، وفهمهم وأخبرهم بالذى لهم وعليهم . وكتب صلى الله عليه وسلم العهود والكتب

ثم خرج رسول الله الى حجة الوداع لموافقة الحج فيها عاشر الحجة (١) ومعه أشراف الناس. وخطب بعرفة خطبته المشهورة التى بين للناس فيها مابين قال عليه الصلاةو السلام :

أيها الناس اسمعو الى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وان كان ربا فهو موضوع ولكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله ان لا ربا وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله . وان كل دم فى الجاهلية موضوع كله . وان أول دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب (٢) فهو أول ما ابدأ من دم الجاهلية

أيها الناس ان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم

«انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله »

ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشرشهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان

أيها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ان لايواطئن فرشكم أحدا ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا انهن لايملكن لأنفسهن شيئاً وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فانى قد بلغت قولى وتركت فيكم ما ان استعصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه

أيها الناس اسمعوا قولى واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من مال أخيه الا ماأعطاه إياه عن طيب نفس . فلا تظلموا أنفسكم

ألاهل بلغت اللهم اشهد !

اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم بعد ماقضى حجة الوداع فطارت الاخبار بذلك ، فوثب الاسود باليمن ووثب مسيلمه باليمامة وطلحه بن خويلد فى بنى أسد يدعى كلهم بالنبوة ، وحاربهم رسول الله بالرسل والكتب الى عماله ومن ثبت على اسلامه من قومهم ان يجدوا فى جهادهم . فأصيب الاسود قبل وفاته بيوم ولم يشغله ماكان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه . فبعث الى المسلمين من العرب فى كل ناحية من نواحى هؤلاء الكذابين [illegible]

ثم بدأ به المرض صلى الله عليه وسلم وأول ذلك ان الله نعى نفسه الشريفة اليه بقوله : « اذا جاء نصر الله والفتح » ثم بداء الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادى به وجعه وهو على يدى نسائه حتى استقر به فى بيت ميمونة ، فاستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة فاذن له ، وخرج على الناس فخطبهم وتحلل منهم وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم ثم قال : (ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا و بين ماعنده فاختار ماعنده) فهمها أبو بكر فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال : على رسلك ياأبا بكر

جمع رسول الله أصحابه ودعا لهم كثيرا ، وأوصاهم بتقوى الله وأوصى الله بهم واستخلفه عليهم وأودعهم اليه ، ثم سألوه عن مغسله ، وكفنه ، والصلاة عليه ، وعمن يدخله القبر فقال لهم فى كل ذلك . ثم أوصى بالأنصار خيرا . وأمر سد الابواب التى فى المسجد الا باب أبى بكر وقال : انى لاأعلم امرأ أفضل يدأ عندى فى الصحبة من أبى بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة اخاء وايمان حتى يجمعنا الله عنده

ثم ثقل به الوجع وجاء وقت الصلاة فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلى ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة فخرج ، فلما أحس أبو بكر تأخر ، فجذبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر ، ثم كان أبو بكر يصلى بصلاته والناس بصلاة أبى بكر (صلوا كذلك عشر صلوات على المشهور). فلما كان يوم الاثنين ، وهو يوم وفاته خرج عليه الصلاة والسلام الى صلاة الصبح عاصبا رأسه وأبو بكر يصلى فنكص عن صلاته ورده عليه السلام بيده وصلى قاعدا على يمينه ، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة ليعظهم ويذكرهم ، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطجع فى حجرة عائشة وخرج أبو بكر الى السنح (١) . قالت عائشة فثقل فى حجرى فنظرت وجهه فاذا بصره قد شخص الى السماء وهو يقول : الرفيق الأعلى فعلمت أنه خير فاختار ، وذلك نصف النهار من يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الاول

موضع قرب المدينة كان به مسكن أبى بكر

صدر ينعى فى الناس بموته ، فقامت رجال تزعم أنه لم يمت : وأدرك الخبر أبا بكر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال : (بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً) . وخرج الى سيدنا عمر بن الخطاب وهو يتكلم فقال له : أنصت فأبى فاقبل هو على الناس وتكلم فجاءوا اليه فقال : (أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت) ثم تلا « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين »قال عمر : فما هو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى وعرفت أنه قد مات

قام علىّ ، وعباس ، وابناه الفضل ، وقثم . واسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أوصى فغسله على وعليه ثيابه مسندة الى صدره والعباس وابناه يقلبونه معه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، ثم كفنوه فى ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيهن ادراجا ودفن حيث قبض ورفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته . ولحده أبو طلحة زيد بن سهل ، وكان يحفر لأهل المدينة . ثم دخلت الناس فصلت عليه الرجال ، ثم النساء ، ثم الصبيان ، ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحد ، ثم دفن فى وسط الليل ليلة الاربعاء وقيل ليلة الثلاثاء . وكانت ليلة ليلاء أظلمت بفقد الرسول وانقطاع الوحى ، واشترك الناس كلهم فى العزاء ، فطاشت العقول ، وخرست الألسن ، وعمره ثلاث وستون أو خمس وستون صلوات الله عليه .

﴿ شمائله صلى الله عليه وسلم ﴾

كان حسن الخلق ، وسيما قسيما ، أبيض اللون مشربا بحمرة . وكان وجهه أغر طاهر الوضاءة يتلألأ فيه تدوير ، ولم يكن بالطويل ، ولا بالمطهم ، ولا بالمكلثم ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن . بينهما عرق يدره

الغضب . أبلج الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة حاد البصر . عظيم العينين أنجلهما . أدعجهما . أكحلهما . أسود الحدقة ممزوجة بحمرتها . أحمر المآقى . أهدب الاشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها . شارع الانف . حسن الارنبة أقنى العرنين . سهل الخدين . أسيلهما صلبهما تام الاذنين ضليع الفم حسنه . أشنب الأسنان . مفلج الثنايا براقها اذا ضحك يتلألأ واذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه . وكان أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم . حسن الصوت فى صوته صهل يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره ، واذا خطب اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم . أحسن عباد الله عنقا لا بالطويل ولا بالقصير كأنه جيد دمية . أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب . أجرد أزهر اللون أنور المتجرد . أحسن وجها . وألين الناس كفاً . وأنور الناس لونا . يرى رضاؤه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته فكأن وجهه مرآة . لم يصفه واصف الا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر . من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته . لم أر قبله ولا بعده مثله ، فخما مفخما حسن الجسم معتدل الخلق بادنا أحسن الناس قواما لا يعدو لحم بعض بدنه بعضا . كالمرآة فى استوائها . وكالقمر فى بياضه . أطول من المربوع وأقصر من المشذب . عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين . سواء البطن والصدر . قوى الجسم . شديد البطش . عظيم الهامة . ضخم الكراديس . شثن الاصابع شثن الكفين والقدمين . جليل المشاش والكتد . عبل الذراعين . عبل العضدين ضخم الزندين . طويلهما ضخم الفخذين والساقين . رحب الراحتين . سائل الاطراف منهوس الكعبين . مسيح القدمين . خمصان الأخمصين . أحسن البشر قدما اذا التفت التفت جميعا واذا مشى كأنما يتقلع عن صخر وكأنما ينحط من صبب يخطو تكفيا ويمشى هونا بغير تبختر . ما مشى مع أحد الا طاله . دريع المشية يجبد أصحابه أنفسهم وهو غير مكترث يمشى مجتمعا مشيا يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان . ولا يلتفت وراءه ولا يعيا . يقبل جميعا ويدبر جميعا . اذا جاء مع القوم غمرهم يسوق أصحابه زين من لقيه بالسلام . كث اللحية . حسن السبلة

حسن الشعر رجله . شديد سواده اذا انفرقت عقيقته فرقها . جميل الوفرة . حسن اللمة . عظيم الجمة ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط . كان جعدا رجلا يترجل غبا . واذا مشط شعره يأتى كأنه حبك رمل وربما جعله غدائر أربعا تخرج كل أذن من بين غديرتين وربما جعله على أذنيه فتبلغ سوالفه . اشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر فكان طويل المسربة دقيقها موصول مابين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط لم يكن على بطنه ولاعلى ظهره شعر غيره

أحسن الناس خلقاً ، وأجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، والين الناس عريكة ، وأكرم الناس عشرة ، وأطهر الناس طبعا ، وأشجع الناس قلبا وأسخى الناس كفا ، وأطيب الناس نفسا . أعرف الناس بالله وأخشاهم لله وأكثرهم صياما وقياما لاسيما فى شهر رمضان حتى تورمت قدماه . أجود الناس بالخير لايرد من سأله حاجة الابها اوبميسور من القول ، ولا يؤيس منه راجيه ولايخيب فيه ، ولا يأتيه أحد الا وعده وأنجز له وان كان عنده اعطاه . ولا يدخر شيئاً لغد ، وماسئل شيئاً قط فقال لا . لم يكن بالجافى ولاالمهين ، وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ، وكان يعظم النعمة وان دقت ، لايذم منها شيئاً . لاتغضبه الدنيا ولا ما كان لها فاذا تعدّى (١) الحق لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له يغضب لربه عز وجل ولا يعضب لنفسه ولا ينتصر لها ، واداغضب أعرض وأشاح . واذ فرح غض طرفه ، واذا رأى شيئاً يكرهه عرف فى وجهه . وكان أسد حياء من العذراء فى خدرها . كان من أفكه الناس لايحدث حديثا الا تبسما قليل الضحك جل ضحكه التبسم اذا افتر ضاحكا يفتر عن مثل سنا البرق اذا تلألأ . وعن مثل حب الغمام . كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة . ولكن تدمع عيناه حتى تهملان فيسمع لصدره أزيز . يبكى رحمة لميت أوخوفا على أمته وشفقة ومن خشية الله وعند سماع القرآن وأحيانا فى صلاة الليل . وإذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته

---

(١) [illegible]

وماتثاءب قط وكان يكرهه من غيره . دائم البشر . سهل الخلق . لين الجانب دائم الفكرة . متواصل الأحزان . طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . ويعرض عمن تكلم بغير جميل . ويكني عن الأمور المستقبحة في العرف إذا اضطره الكلام الى ذكرها . ويخزن لسانه الا فيما يعنيه . ان صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء . يذكر الله بين كل خطوتين ولا يقوم ولا يجلس الاعلى ذكر الله تعالى . يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى . حلو المنطق . في كلامه ترتيل . يتكلم بجوامع الكلم . كلامه فصل لانزر ولاهذر . بين يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كأنما هو خرزات نظمن لافضول فيه ولا تقصير لو عده العاد لأحصاه . لا يذم أحدا ولا يعيبه . ولا يطلب عورته ولا يتكلم الا فيما رجى ثوابه. مجلسه مجلس حلم وحياء وامانة وصبر لاترفع فيه الاصوات ولا تأبن فيه الحرم . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . فاذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده . حديثهم عنده حديث أولهم ان قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره . يضحك مما يضحكون ، ويعجب مما يتعجبون . يعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . وكان يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسئلته من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام . خافض الطرف جل نظره الملاحظة . نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء . تنام عيناه ولا ينام قلبه . يؤثر أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم . وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخلقه . يتغافل عما لا يشتهى ولا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه وما ضرب بيده شيئا قط الا أنه يجاهد في سبيل الله . ولا ضرب امرأة ولا خادما . يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس . ويحسن الحسن ويقويه . ويقبح القبيح ويوهيه أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة . وأعظم الناس عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة . يرفد صاحب الحاجة . لا يقصر عن حق ولا يجاوزه . لا يقبل الثناء الا من مكافئ.

يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . ما أكل على خوان ولا فى سكرجة ، ولا خبز له مرقق . وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير . يمر بالصبيان فيسلم عليهم . ولا يدفع عنه الناس ، ولا يضربون عنه ، ولم يكن شخص أحب اليهم منه . وكانوا اذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك . واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس

﴿ كلمات من حكم رسول الله ﴾

أنى تستقصى الأنفاس الشريفة وتحصى الحكم المنيفة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم من أذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم ، وقصرت عن مقاومته جميع الامم ، وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم ، وانما هى كلمات على سبيل البركة والاعتبار . والله يهدى لنوره من يشاء « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

قال عليه الصلاة والسلام :

رحم الله عبدا قال فغنم . أو سكت فسلم . السعيد من وعظ بغيره . والشقى من وعظ بنفسه صنائع المعروف تقى مصارع السوء . الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف جبلت النفوس على حب من أحسن اليها . التدبير نصف المعيشة . المسلم من سلم الناس من يده ولسانه الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . المرء كثير باخوانه الدال على الخير كفاعله المؤمن مرآة أخيه . الناس معادن . حبك الشئ يعمى ويصم . من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . الرزق أشد طلبا للعبد من أجله . نية المؤمن خير من عمله . اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله . اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك . قل الحق وان كان مرا . استعينوا على حوائجكم بالكتمان . ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار ماعال من اقتصد ، لايلدغ المؤمن من جحر مرتين . إياك ومايعتذر منه . عسى

ماشئت فانك ميت ، وأحبب من شئت فانك مفارق ، واعمل ماشئت فانك مجزى به .افشوا السلام . وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام . وصلوا بالليل والناس نيام . حفت الجنة بالمكاره . مطل الغنى ظلم . البر حسن الخلق . القناعة مال لا ينفد . من تواضع لله رفعه الله . من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق من مال اكتسبه من غير معصية . لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار . اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس أهله . لا إيمان لمن لا أمانة له. إياكم والدين فانه هم بالليل ومذلة بالنهار . الوحدة خير من الجليس السوء . لا يمنعن من أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق اذا علمه . لا تظهر الشماتة بأخيك .لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وترجع بطانا . رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ان الله عند لسان كل قائل . ان المعونة تأتى العبد من الله على قدر المؤنة والصبر على قدر المصيبة . ان الله ينهاكم عن قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال . ما مثلكم ومثل الدنيا الا كراكب قال تحت الشجرة ثم راح وتركها . ليس من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت . ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ان المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى خير دينكم أيسره ، وخير العبادة أخفها . ان الله يحب الرفق فى الأمر كله . أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل . كفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى أمر دنياه ودينه . لاتزال هذه الأمه بخير ما اذا قالت صدقت ، واذا حكمت عدلت . واذا استرحمت رحمت . الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله . شر الأمور محدثاتها اليد العليا خير من اليد السفلى . ماقل وكفى خير مما كثر وألهى . من أعظم الخطايا اللسان الكذوب خير الغنى غنى النفس رأس الحكمة مخافة الله خير ما ألقى فى القلب اليقين الخمر جماع الاثم . شر الكسب كسب الربا شر المأكل مال اليتيم سباب المؤمن فسق . من يكظم الغيظ يأجره الله . ومن يصبر على الرزية يعوضه الله . ومن يقرض الله يضاعف له الله شر العمى عمى القلب . وشر الندامة ندامة القيامة خير

العمل ما نفع . الضحك هلاك البدن . نعمتان مغبون فيهما الناس : الصحة ، والفراغ . أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة . السلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم . السعادة طول العمر فى طاعة الله . خصلتان لا تكونان فى منافق : حسن سمت ، وفقه فى الدين . فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة . الرغبة فى الدنيا تكثر الهم والحزن . الفراغ يقسى القلب . الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . العلماء أمناء الله على خلقه . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . لكل شىء عماد وعماد الدين الفقه . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر . من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن . دع ما يريبك الى ما لا يريبك . التمسوا الرزق فى خبايا الأرض اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم . اتقوا دعوة المظلوم . لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه أبدا ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدا . لا يعجبنكم اسلام رجل حتى تعلموا كنه عقله . ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله . رب مبلغ أوعى من سامع . من أودع معروفا فليشكره ، فان ستره فقد كفره . من صمت نجا . من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت اخوته . أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة

(تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم)

فى الموءودة والسائبة والتفاخر فى اراقة الدماء وتقطيع الأرحام . ودولة الفرس والرومان كانت متظاهرة بكل مافيه نهك القوى وهلاك الأموال وظلم الأمم المجاورة فضلا عن الترف والسرف الذى بلغ مبلغه ووصل أقصى درجات الافراط . فهما نظرت رأيت بغيا ، وحسدا ، وقطعا للأرحام ، وتنافسا فى الردى ، واعراضا عن ذكر الله . وسلطان القوى منحصر فى سلب مايد الضعفاء حتى ضاعت عقيدة الأمن على الأرواح والأموال والاعراض . وأصبحت الكرة الأرضية كأنها دار حرب ، والنفوس كلها مشرأبة الى الأذى والضرر ، فلا تستأنس رشدا ولا خيرا من أحد أبدا : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون »

أىّ علاج لرفع هذه الغمم عن الأمم أنجع وأنفع من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم تمض عليه عشرون سنة بين دعوته وهجرته . ومناظراته وغزواته . حتى ظهرت الفائدة فى العمل، وقام العدل ، وانتظم شمل الجماعة بالأمر بالمعروف (وصرف الله القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء) وخلقوا خلقا جديدا نسوا فيه العداوة والعدوان ، ثم لم تمض عشرون سنة أخرى حتى أصبحت الأمة العربية بديعة النظام شديدة البنيان نامية فيها أفنان العزة مستحكمة فيها أصول القدرة مستعلية آدابها سائدة أخلاقها مستحسنة عاداتها صاف منهلها مستقيم منهجها لذيذ موردها غزير منبعها معروفة شرعتها مهندم بناؤها متمم منظومها متحد هواؤها وأهواؤها ووداتجهت لكل شىء يحفظ وجودها ، ويجمع كلمتها وينهض همم آحادها . حتى تنبهت ، وتقوت ، وسادت ، واتسعت وأشرفت على رءوس الأمم وبجات عليهم

بماذا تم لها ذلك ؟

تم لها بالدين القويم الأصول . المحكم القواعد . الشامل لانواع الحكم الباعث على الألفة الداعى للمحبة . المزكى للنفوس . المطهر للقلوب . الهادى للعقول بنور الحق . الكافل لكل مايحتاج اليه الانسان . المشيد لمبانى العمران . الحافظ لوجود المعتنق له من آفات النسيان . المزين لنوحتتة الجامع للصيانة . الحافظ

للاستقلال . المهذب للأخلاق . المحرك بمواعظه غيرة القلوب . الآمر ببيع الأرواح فى حفظ شرف الأمة والملة

أتى على الأمة العربية ، فوحدها ، وقواها ، وهذبها ، وهداها ، وأنار عقولها وذكاها ، وقوم أخلاقها وسدد أحكامها . فسادت العالم أجمع وساست دوله بسياسة العدل والانصاف ، وليس ذلك ببعيد على دين أعدته الحكمة الإلهية خاتمة الأديان لنوع الانسان ينتهى به إلى غاية المدنية ويصل إلى أقصى مراقى الآداب

جاء هـــذا الدين بصور من العبادات وضروب من الاحتفالات ، تفقه الالباب ، وتنير العقول ، وتكسو الانسان حلة الانسانية مع ظهور الحجة واستقامة المحجة على أنها من عماد السعاده ومصلحة البشر

طالب هـذا الدين كل قادر بالعمل . وأنه لا يليق بنفس بشرية أن تظهر فى الوجود وقد عميت عن طرق الاهتداء وطمست عن أعينها معالم الهدايه فهى كل لا تعمل الخير ولا تبقى عليه

قال تعالى « وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » فأصبح للانسان بالدين قوة تدعوه للدأب على العمل حتى يبلغ الغاية من عمله ، فرفع الدين بهذا عن النفوس الجبن والخمول والكسل وعلمه وبين ما فيها من العار والشنار والضعف الذى لا يليق بالانسانيه أبدا

نزلت فى الكتاب الكريم خمس آيات تأمر الانسان بالسير والحركة . وتدعوه للنظر فى آثار من تقدمه وقد نصبها الله منصب العظة والاعتبار . وأقامها مقام الدليل على عمل أصحابها من خير أو شر محدد فى النفوس قوة تستدعى بالاعمال واتباع أحسن الطرق فى اقتناء الفضيلة بالجد والاجتهاد لا يقعدها عنها المسالك الحزنة ولا المعابر الوعرة

قال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فدل هذا على أن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله ، وأن الانسان كلما استغرق فى بحار العبودية لخالقه [illegible] أن إلهه إله كل شىء القادر على كل شىء المحض ما فى نفسه [illegible]

من أعمال الهداية التى نصبها الله سبيلا للنجاة فلا سلطان لا حد عليه إلا بحق ، لأنه بهذا التوحيد أصبح عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ماسواه له ما للحر على الحر

عرف الانسان من هذا بالبرهان القطعى انمشيئة الرؤساء التى كانت تستعبد الأمم فى مرضاتها ، والروح الخبيثة التى كانت تلامسهم فيدعون الشرائع الالهية ناحية . ويطمحون الى الشهوات ، ويدخلون فى كل أمر لهم فيه رغبة بلا روية ولا استبصار لاينبغى الرضوخ لها ولا التسامح فيها ، وانه يجب على الانسان انه فضلا عن أن يصون نفسه عن الانقياد لها كذلك يتقدم لبنى جلدته بالنصيحة حتى تتأبى عنها فقد قال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

كشف الاسلام عن العقول غمة الوهم ، ورفع الامتياز بين أفراده إلا بعلم أو عمل قال تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » وقال تعالى « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون) وقرر لكل طبقة من طبقات العلوم شرفا مخصوصا ودعى لها جميعا ، حتى دعى الناس للنظر فى النجوم بعد البحث فى هذه الرسوم وذم الجهل والقصور عن ادراك ماجاءت به الشرائع من الحكم وضرب له الامثال فقال تعالى حكاية عن المتلبس به « كمثل الحمار يحمل أسفارا » ففتح بذلك باب السعادة للانسان بطهارة العقل من دنس الوهم وخلاص العمل من وساوس الطغام

جمع القلوب على الألفة والمحبة بفريضة الزكاة التى افترضها ، تؤخذ من أغنيائهم لفقرائهم ، فاستلت الضغائن والاحقاد التى فى القلوب ، وأصبحت الامة الاسلامية اخوانا لانهليست ولاسوسيالست ولا كومون ولا أنارشيست « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

أدب النفوس بالصوم ، وأذاق الامير البؤس . ليعلم ويحس بحال أخيه الفقير الجائع فلا ينساه من الموهبة التى وهبها الله له ولايخليه من إحسان ، حتى يكون الغنى المحسن الشاكر كما أن ذاك هو الفقير الصابر

هذه قطرة من بحر الشريعة الغراء تكفينا لتقرير الكلام عليها فى هذه العجالة فنقول : الى أى مرتبة يصل الانسان المتصف بهذه الاخلاق . حر فى نفسه . معان من اخوانه . عالم بأن الله واحد لاإله الاهو . متحقق أن لاوصول للسعادة الا بالعمل . وان لاعمل الا ماكان فيه رضاء الله . أتراه يصبح ويمسى جاهلا بعد هذا « التعليم » وتصيبه الغواية « مع هذا الارشاد » ويتلبس بالمنكر بعد هذا الامر بالمعروف ؟ أم تراه يرقى بشرف هذا الاستعداد حتى يبلغ درجات الكمال التى أعدها الله وسجلها لكل من اتبع نور هذا القبس واستضاء به ؟

ظهر الدين الاسلامى وبقية الملل قد مزقتها المشارب ، وفرقتها المذاهب فكان سببا لهداية الخلق أجمع . وأصبحت الناس كلهم أمامه بين رجلين : إما داخل فيه طوعا . واما مقلد له استكبارا وكذلك معنى قوله تعالى « وماأرسلناك الا رحمة للعالمين » . فالنهضة العلمية فى بغداد فى عهد المأمون رضى الله عنه لاتختلف عن النهضة العلمية فى باريس فى أيام لويز الرابع عشر . فان مفتاح العلوم فى كليهما الدين الاسلامى الذى دعى للنظر والنصر فى كل شىء . ولم يدع نفسا غافلة لاهية الا عابها . فالدين الاسلامى منشأ كل علم . وباب كل سعادة ومفتاح كل استقلال للرأى والفكر والارادة . وبه تكمل الانسانية . وتستعد لان تبلغ ماهيأه لها الله من حسنات الآخرة

اتفق أهل الدنيا على أن دين الاسلام رفع كل الاثقال عن بنى الانسان وأحسن اليهم المعاملة حتى برامت عليه أهل الملل الأخرى يدعون فضلا من أهله ، فوجدوا فيه العدل . والانصاف . والمساواة . والاخاء حتى فى التقاضى مع المسلمين بين يدى قضاة المسلمين فاستكثروا بالدخول فيه حتى أن دخولهم فى واردات الجزية من كثرته واستخدم الخلفاء من بنى أمية وغيرهم من وجدوا فيه المهارة من غير المسلمين كالكتبة والعمال ، وصعدوا بهم الى أعلى المناصب وأسماها والاسلام يظلهم بظلاله . وهم يسلون فى خدمته أنفسهم

انتقل الى أوروبا من طريق الاندلس (باسبانيا) [illegible]

وأنبتت من كل زوج بهيج . وأتت على آخره حملة الغرب على الشرق وتداخلهم فيه وفى أحواله أكثر من مائتى سنة ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بعودتهم لبلادهم بخفى حنين — استغفر الله — ، بل عادوا خاسرين فى حربهم ، مستفيدين فى علمهم ، حافظين لكل التقاليد الدينية . وقد عرفوا من أين غلبوا ، وأدركوا من أين أخذوا .

كانت أهالى أوربا غافلة عن قائدها . لاهية عن مرشدها . فجاءها ماأرادت عن قرب . فنهضت لقطع سلاسل الذل التى لبستها من أيدى ملوكها المغرورين ، ونقضت العزائم التى قيدتها بها زعماء الدين . ورأوا أن اختصاصهم بهذه الفضائل وعدم مشاركتهم فيها أفضل . فدأبوا على العمل بها . ووجهوا همتهم لسلخها عن أهلها . فما زالت تلك الأمهات تسمو عندهم حتى مزقت حجب الجهل . ومازالت عوائدهم تنتقل الينا ونستعيض بها عما عندنا حتى أبادت ذلك العلم ، وانتهى الأمر بأن أضاء الغرب ذلك القبس . وأصبح أهله فى ظلمات لايبصرون

لم يكتف المسلم بأن يستعين بالغربى فى معرفه سير النجوم والكواكب ، ومعرفة الفصول والمواسم المأمور هو بالنظر اليها من قبل ذلك بعدة أجيال ، بل أصبح عالة عليه يستعين به فى أقل القليل من أموره المعاشية

فقد المسلمون لطائف شرف الاستقلال ودينهم مانحها . وشدوا على أيديهم الأغلال ودينهم قاطعها . واسترقوا وهم السبب فى تحرير الرقاب . وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء فى كل باب . فاض بينهم الغدر والزور ودينهم يحرم الخديعة ويخرج الغاش من أهله . ومالهم لايتناصحون ولايعتصمون وقد عادوا لما كان عليه الأمم الأولى الأغنياء يسلبون أهل البأساء . والأبناء يقتلون الآباء والبنات يعققن الأمهات

كادهم أهل الغرب كيداً بلغ سكينه العظم أخرجوهم عن مواطنهم ، وأبعدوهم عن مشارعهم . وأزاحوهم عن مواقعهم . وأصبحوا على حال من السذاجة لايفرقون بين دايتهم ويفعـ يعزلون وهم لايستحون : ان دين

الاسلام من العوادى عليهم والسبب الأول فى تقهقرهم، وقد كذبوا وافتروا وهم من العماء بمكان . لايفرقون به بين عزهم أمس وذلهم اليوم، ولايدركون أين كانوا والى أين صاروا

سيئنون غدا حيث لاينفع الأنين . ويبكون ولايجدى البكاء . لأن البلاء الذى نزل حرته الذنوب . والله كما يثيب على طاعته يعاقب على عصيانه « ولن تجد لسنة الله تبديلا »

اللهم انا نسألك طهارة فى العقول ، وخلوصا فى العمل من العوج والرياء، وهداية بالعلم والاعلام ، ورجوعا لآداب الدين التى فارقناها انك على كل شيء قدير

سيرة سيدنا أبى بكر

خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

هو سيدنا عبدالله بن أبى قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم (ابن مرة بن كعب) بن لؤى بن غالب بن فهر التيمى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة

ولد رضى الله عنه لسنتين وأشهر من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة . وكان أعف الناس فى جاهليته. ومقدما فى قريش . وهو من أهل مشاورتهم ومحببا فيهم وأعلم لمعضلهم . وكان أعلم أهل زمانه بالانساب حتى كانت العرب تدعوه (عالم قريش) وبيانه خرمه وكرمه وفضله ، فقد كان ذامال جزيل فى قومه ومروءة تامة واحسان وتفضل فيهم . يصل الرحم ويصدق الحديث ، ويكسب المعدوم . ويعين على نوائب الدهر ، ويقرى الضيف . وكانت له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما شرفه الله بالنبوة كان أبو بكر أول رجل أجاب دعوة الاسلام من غير تلعثم . وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق لأنه بادر لتصديق الرسول ، ولازمه فى حضره

فلم تقع منه هنـاة ما، ولا وقفة فى حال من الأحوال . ثم قام بدعوة اخوانه ، ولأنه كان محببا سهلا كانت رجالات قريش تألفه ، فأسلم باسلامه كثير ، وأجاب دعوته مثل سيدنا (عثمان) بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ، وغيرهم من صناديد الاسلام . واشترى من أسلم من العبيد وأعتقهم فى سبيل الله، فكانت يده الطولى مبسوطة بالفضل على السادات والموالى

حاز شرف الصحبة بنص القرآن الكريم « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » ومن حين أسلم الى حين توفى لم يفارقه سفرا ولا حضرا إلا فيما أذن له صلى الله عليه وسلم فى الخروج فيه ، وشهد المشاهد كلها . وحمل الراية العظمى فى آخر غزواته ، وحج المسلمين ، وصلى بالناس فى مرضه عليه السلام ، وكل باب فى المسجد سد الاباب أبى بكر

قد امتحنه الله بأشد ما يمكن به الامتحان ، فله فى الاسلام المواقف الرفيعة العالية : ثباته فى قصة الاسراء، وجوابه للكفار ، وكونه موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته وصاحبه فى الغار عند تحجبه ومسايره فى الطريق عند سيره . وقد نصب نفسه للخاصة والعامة والموالى والمعادى وترك عيـاله وأطفاله بين يدى الأعداء . وكلامه يوم بدر ، ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الامر فى دخول مكة وما كان منه من الثبات عند المصيبة العظمى التى خرست عندها فصحاء فحول الرجال يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم، واهتمامه فى بعث جيش أسامة ، وقيامه فى قتال أهل الردة . وقد طمع أهل الشرك فى الاسلام كما سيأتيك تفصيله . ومازال يحج الصحابة بالدلائل حتى شرح الله صدورهم كما شرح صدره ورزقه تمـام النعمة وصلاح الدين والدنيـا . فالفضل وان كان مقسما بينه وبين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ولـكنه أكثرهم أسبابا فى اقتنائه، وأشدهم صوابا فى معرفة طرق نواله

ولى الخلافة لمـا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى فى ١٣ ربيع الأول من سنة أحد عشر . وأول من بايعه عمر بن الخطاب . وتبعه الرأى العالب من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأنه أفضل

هذه الأمة وأولاها بالامامة لفضيلته وخاصة منزلته وشدة استحقاقه من اسلامه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحد من عالمه وفى عصره على حسب صحة الاحاديث والأسانيد فى تقديم أبى بكر، لأن رجالها أعم، وخيرهم أكثر، واسنادهم أصح. وقد صنع أبو بكر ما صنع فى ماله، وكان المال أربعين ألفا من الدنانير فانفقه على نوائب الاسلام وحقوقه، ولم يكن ماله ميراثا لم يكد فيه، أو هو غرير لم يشعر بعسر اجتماعه وامتناع رجوعه، بل هو ثمرة كد، وكسب جولان وتعرض لحكم الليالى والأيام. ثم هو ثقيل الظهر بالنسل، ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، يعول أبويه وما ولدا ولم يكن فتى حدثا فتهزه أريحية الشباب وغرارة الحداثة. والأعجب أنه لم يكن بازاء هذا الانفاق وحذاء هذا العطاء رغبة تدعو أو طمع يحدو، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بلغ من رهطه ولا من قومه قوة تصد عنه أذى المشركين من قريش فيطمع فى جاهه، بل هم على ماعلمت من السطوة والقدرة، ثم لم يكن له على أبى بكر يد قبل ذلك مشهورة فيخاف العار فى ترك مواساته عليها

قضى الأمر ببيعته فصعد المنبر وقال: (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينونى، وان صدقت فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ـ ان شاء الله ـ لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله)

قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بوظيفة الامامة ـ من حراسة الدين. وكفاية الامامة وصيانة الشرع الشريف، فلم ينحرف عن شىء ثمة ولا ... وسار وكتاب الله يقوده، وسنة رسوله تحوطه

﴿ أعماله رضى الله عنه ﴾

بدأ بتسيير جيش أسامة بن زيد الذى كان جهزه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يثنه عن ذلك ماحصل من الاضطرابات فى بلاد العرب على أثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشيع الجيش ماشيا وأسامة راكب فقال أسامة : لتركبن أو لأنزلن فقال : والله لانزلت ولا ركبت وماعلى أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . ثم أوصاه وأصحابه فقال : لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تفرقوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للأكل ، واذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، واذا لقيتم قوما فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه فاذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله . يا أسامة اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاعة ثم أنت آقل ، ولا تقصر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم ودعه ، فذهب أسامة وغاب أربعين يوما ثم رجع المدينة ظافرا غانما كما سيأتى ونفع الله جماعة المسلمين بهـــذا الجيش نفعا عظيما ، لأنه فت فى عضد المنافقين وعلمت العرب أن المسلمين لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا نووا على فعله من الأذى .

نعم رد البلايا الكثيرة عن جماعة المسلمين ، فقد منى الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمصيبة العظمى مصيبة الردة التى لولم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لتشتت شمل المسلمين وأصبحوا شذر مذر .

مالبثت العرب بعد علمها بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتدت الا قريشا بمكة وثقيفا بالطائف ، وأصبحت الناس على قسمين : تارك للدين كأتباع مسيلمة وأهل اليمن وهم الذين اتبعوا الأسود العنسى ، ومعطل لبعض أركانه كالزكاة وهم أتباع مالك بن نويرة

شمر رضى الله عنه عن ساعده غير مبال بهذه الأهوال الجسام ، ولا هياب لها

مع قلة الجيش و كثرة العدد ، بل مع قلة المسلمين وكونهم كالغنم فى الليلة الممطرة بقلتهم ، وكثرة عدوهم ، واظلام الجو عليهم بفقد نبيهم . وهكذا الواثق بوعده سبحانه وتعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقام معتمدا على ربه مستسهلا المصاعب ، فكلل الله سبحانه وتعالى أعماله بالنجاح

عاجلته عبس وذبيان مع جماعة من بنى أسد وكنانة ، وجاؤا مانعى الزكاة وأطمعوا الناس فى المدينة لقلة من فيها ، فأعان الله المسلمين فلم تطلع الشمس عليهم حتى ولت الاعداء الأدبار . ثم جاء أسامة فاستخلفه على المدينة وقاتل المرتدين وهزمهم ، وقد كان استراح جيش أسامة وثاب من حوالى المدينة . فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائدا ، وسير الجيوش لقتال أهل الردة . فجبر الاسلام بعدما كسر ، وفض حدتهم ، وفرق كلمتهم ، وكسر شوكتهم . والحمد لله

خص كل قائد بناحية لقتال من فيها من أهل الردة . ف(١) سيف الله خالد ابن الوليد لطلحة بن خويلد الأسدى ، ومالك بن نويرة و (٢) عكرمة بن أبى جهل الى مسيلمة باليمامة ، و (٣) شرحبيل بن حسنه لأهل اليمامة . و (٤) أبى أمية الى جنود العنسى — وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن — . و (٥) حذيفة ابن محصن إلى أهل دبا ، و (٦) عرفجة بن هرثمة الى أهل مهره . و (٧) سويد ابن مقرن الى تهامة اليمن ، و(٨) العلاء بن الحضرمى الى البحرين . و (٩) طريفة ابن حاجز الى بنى سليم وهو ازن ، و (١٠) عمرو بن العاص الى قضاعة . و(١١) خالد بن سعيد الى مشارف الشام . وزود كل قائد بما شاء الله أن يزوده من الارشاد . أحد عشر باباً من أبواب الفتنة فتحت فى آن واحد . وجرح رسول الله صلى عليه وسلم لم يندمل بعد ، والأمر فى سره وجهره محتاج إلى المجاهدة الحقة ، والقائم لابدله أن يدأب بالاستعانة بالمعروف مع من أجاب الدعوة واستمر على الاقرار ويقاتل من رفضها ولازم الانكار . وأصحاب العجلة والفساد من العرب حشو الاسلام والمسلمين ، وقد ارتفعت الامانة فالكل عون على الكل من قبل الاعداء

هذا الموقف من أشد المواقف الحرجة التى ليس لها إلا عزم سيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، يذكى سراج هدى نبيه صلى الله عليه وسلم من أخفى السبيل .

ويدعو الناس اليه بعد ماألفتهم داعي الشيطان ، وأدبروا عن الهوى ، وأصبحوا بعد إيمانهم كفارا

اجتمع المشركون ، واجتمع المسلمون ، ونازل كل قائد خصمه وما زالوا بهم حتى هزم الله أعداءه على يد أوليائه كما بينته أصحاب السير فى كلام طويل ، ولم يهمه أحد منهم مع كثرة المقاتلة ، ولم يغلبوا على قلتهم ولم يخذلوا على ضعفهم ، لانهم بعيدون عن الهوى غير حائدين عن الصراط السوى

لينظر الانسان نظرة غير ذى هوى : فيرى أبا بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين كالشعرة البيضاء فى الثور الأدهم ، والعرب كلهم أعداء له ولمن معه ، ثم ليتأمل فعله من اعزاز دين الله : وقتال من كفر بالله ، ولا سلاح معه أشد من الوثوق بوعد الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » فجازاه الله بتحقيق قوله هذا ، ومنحه النصر المبين والفتح العظيم ، ودانت له أمم العرب واجتمعت كلمتها بعد تفرقها ، وألف له القلوب بعد تشتتها . وتوجهت همة الجميع لتحقيق قوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »

﴿ فتوحاته رضى الله تعالى عنه ﴾

كانت بلاد العرب مجاورة لأكبر ممالك الدنيا إذ ذاك . مملكة الفرس فى الشرق ، ومملكة الروم فى الشمال . ولا حاجة لتكرار الكلام فى شرح ما كان يعتقده ملوك هاتين المملكتين فى نفوسهم من العظمة بعد ما قرأ القارىء فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم أن كسرى أبرويز مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا واستعظاما من قراءته . فما بعد هذا دليل على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كان من فضل تعميم عدل الاسلام ومساواته بين الأمم الأخرى هدمهما بالمرة . وقد كانت الحال من جهة الفرس الى أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جيوش العرب فتحت اليمن وضمت إليه البحرين وعمان والكل عما هو تحت حماية الفرس إذ ذاك . وكانت من جهة مملكة الروم قاصرة على كتابة كتاب الى هرقل ملك الروم وتجهيز جيش فى السنة الثامنة من الهجرة . ورسالة بعض عمال هرقل بالجزية .

انتدب أبو بكر رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد ، ليضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية ، وذلك فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وأمره أن يبدأ (بالايلة) (١) ، وانتدب عياض بن غنم وأمره أن يبدأ (بالمضيح (٢)) ، وأمدهما بماشاء الله أن يمدهما به ، وأوصاهما أن لا يستعينا بأحد ممن ارتد على غزو أبداً

سار خالد بن الوليد ورتب جيشه ثلاث فرق ، وقصد ثغر (الحفير) (٣) وكان صاحبه من عظماء الفرس اسمه « هرمز » تبغضه العرب وتنقم عليه لكثرة غزواته فيهم ، فسبق المسلمين على الماء ، ونزل خالد على غير ماء . ثم تلاقيا وسط الصف فاحتضنه خالد وقتله وحمل جيش المسلمين ، وانهزم المشركون ، واقتسمت الغنائم ، وأرسلت البشائر . وخمس الغنيمة الى أبى بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة بملك الفرس ـ أزدشير ـ ومقامه (بالمدائن) (٤) فأرسل الى المسلمين جيشا آخر يقوده عظيم من عظمائهم ، فجمع المنهزمين من الفرس وسار بهم وبجيشه حتى وصل نهر (الثنى) . فالتقى الجيشان هناك فقتل قائد الفرس . وحمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وغرق الكثير منهم فى النهر . وأخذت الجرية من الفلاحين ، وساروا زمة . وأرسلت بشرى الفتح وخمس الغنائم الى أبى بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة أيضاً بملك الفرس فأخذ من عزمه ومن صبره ما أخذ ، وأحال ذلك الجبروت والاستكبار الى حال آخر صيره يخط فى أمره وألفته الى تلك الطامة المصلة عليه . فسير جيشا بقوده عظيم [illegible] آخر بقوده أعظم منه ، ولكن كل هذا لم يغن شيئا . ولم تلبث عساكر خالد بن الوليد معسكر الجيش الأول حتى مات القائد فى هزيمته ، وأصاب خالد أبناء بكر [illegible] وقتلهم ، فكتب نصارى بكر لملك الفرس بما كتبوا . فأمر الجيش الثانى أن يلحق جماعة المسلمين ويدرك بقية الجيش المنهزم . ولكن القائد [illegible]

---

(١) الايلة ثغر من ثغور الفرس [illegible]

(٢) المضيح [illegible] (٣) الحفير [illegible]

[illegible]

ذلك الجيش برئاسة غيره ، وسار هو الى أزدشير فوجد أخبار الهزيمة وصلته ، فأعلته وأصبح فى مرض عضال

ثم حصلت واقعة (الليس) (١) وثبتت فيها الأعاجم لتوقعهم المدد وثبت المسلمون لتيقنهم النصر من الله

وبعيد ما بين طالب رفه   من زمان ومن يحاول زخرا

فجعل الله كلمته هى العليا ، ولم تمض ضحوة النهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة . وسار خالد بن الوليد قاصداً الحيرة (٢) فى سفن فى بحر الفرات ، فخرج اليه (مرزبان) الحيرة وأرسل ماء الفرات فى الجداول والترع المتفرعة منه ، حتى انخفض منسوب النهر ، ووقفت سفن المسلمين على اليبس ، فسار خالد بالخيل ، وحاصر القصور ، وشدد حتى خرجت القسس من دورها تصيح بأهل القصور وتطلب منهم الصلح ، فصالحهم على الجزية فدفعوها ، وأهدوه هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس . فأرسل خالد بالفتح والهدايا الى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزيه ، وأمر خالداً أن يعدها منها

فلما رأى حكام مابعد « الحيرة » فعل خالد صالحوه على الجزية ، وأخذ فى مكاتبة ملوك الفرس . وسار الى مدينة الأنبار (٣) فطلب صاحبها شيرازاد فصالحه

ثم سار سيدنا خالد وافتتح عين التمر عنوة (٤) ثم سار عنها قاصداً دومة الجندل وافتتحها عنوة أيضا

أثار هذا من حمية العرب الذين تحت حكم الأكاسرة بهذه الجهات من عهد عظيم بسبب من قتل من العرب إخوانهم بعين التمر ودومة الجندل ، فطلبوا من الفرس جيشا يكون لهم عونا . فأخرجت لهم فارس فارسين عظيمين فى عسكر كبير . فكان حظهما فى ماصة القتال مع جيوش الاسلام حظ من مات . ثم وقعت واقعة « الفراض » وقاتل المشركون فيها قتالا شديدا ثم انهزموا ،

(١) الليس موضع على الفرات من جهة الانبار (٢) هى عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهى غربى الفرات على قرب الكوفة (٣) مدينة على شاطئ الفرات شمال الكوفة (٤) بلد فى برية العراق بالبعد عن الانبار ثلاث مراحل

وأمر سيدنا خالد بن الوليد بالرجوع الى « الحيرة »

كان من حكم الحال فى ذلك الوقت أن ينصرف سيدنا خالد عن حرب العراق ، ويسير الى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك ، فصرفه أبو بكر واستخلف على جيشه فى العراق « المثنى بن حارثة الشيبانى » فقام من الحيره حتى أتى بابل (١) وأقام بها ، حتى لاقاه « هرمز » فى جيش الفرس ، فقاتله جيش المسلمين قتالا شديداً أفضى الى هزيمته

كثرت الاختلافات الداخلية فى مملكة الفرس ، فشغلتهم عن أمرهم مع المسلمين ، واطمأن الحال فى كل مافتحته جيوش المسلمين من البلاد ، فرأى « المثنى » أن يستخلف على جيشه ويقصد المدينة ليفاوض سيدنا أبا بكر فى أشياء فوجده مريضا ، فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال : إذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع « المثنى » ولا تشغلكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم ، فقد رأيتنى وقت وفاة رسول الله وماصنعته وماأصيب الخلق بمثله . واذا فتح الله على أهل الشام فارددأهل العراق الى عراقهم ، فانهم أهله . وولاة أمره . وأهل الجرأة عليه

هذا ماانتهى اليه أمر فارس فى ذلك العهد . واذا استحضر القارىء فى ذهنه صورة بلاد العرب يرى أنها كانت محدودة بدولة الروم شمالا ومملكة فارس شرقا ، وان الدعوة للدين بواسطة الجيوش الاسلاميه قد انتقلت منها فى عهد الصديق الى هذه الممالك ، وان سيدنا خالد بن الوليدانحه جهة الشرق وأزال ملك فارس عن كل الأراضى الخصبة التى فى غربى الفرات ـ وهو مايعرف عنه ريف العراق ـ وأصبح حد مملكة فارس نهر الفرات . وأما من جهة الشمال فالذى وقع بعد الذى علمت من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل ؛ والكتاب الذى كتبه لملك غسان بالبلقاء ، والجيش الذى بعثه رسول الله تحت امرة زيد بن حارثة فى السنةالثامنه من الهجره . فقول صاحب حرب وايلة بالحرية

(١) بلدة قديمة بشرق العراق

وجه سيدنا أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص الى مشارف الشام ، وأمره أن يكون ردءاً بتيماء لا يفارقها ، فجهز اليه ملك الروم جيشا فسار اليهم خالد فافترقوا ، فكتب لأبى بكر بالخبر ؛ فكتب اليه بالاقدام فتقدم ، ولقيه بطريق رومى ـ اسمه ماهان ـ فهزمه خالد ؛ وكتب الى أبى بكر يستمده فاهتم بأمر الشام فاستقدم عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد هذيم من قضاعة . كان أبو بكر مسيره اليها يوم عقد الالوية فى ذى القصة ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده ولايتها ، فكتب اليه أبو بكر : انى كنت رددتك الى العمل الذى ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ، ووعدك به أخرى انجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته ، وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك .

فكتب اليه عمرو : انى سهم من سهام الاسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ـ فانظر أشدها ، وأخشاها ، وأفضلها فارم به .

جهز أبو بكر أربعة جيوش : جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين (١) ، وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن (٢) وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان . ووجهته البلقاء (٣) ، وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص . (٤) وساروا جميعاً على بركة الله ، وقد ودعهم أبو بكر ماشياً ، وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت الشام

بلغ هرقل أمر هذه الجيوش فقال لقومه : أرى أن تصالحوا المسلمين ، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم ، فرفضوا رأيه فسار حتى نزل حمص وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه

(١) كورة فى جنوب الشام

(٢) كورة بالشام تبتدئ من بحيرة طبرية وتنتهى بالبحيرة الميتة

(٣) بلد بالشام

(٤) مدينة شامية فى الشرق من نهر العاصى

لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك (١) ، وكل واحد أمير على جيشه ، والروم أمامهم وبين الفريقين خندق ، فكان الروم يقاتلون باختيارهم ، وان شاؤا احتجزوا بخنادقهم . وأقام الفريقان على ذلك صفر والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة . فأرسل الأمراء الى أبي بكر يستمدونه ، فكتب الى سيدنا خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ، ويتوجه الى الشام مدداً لأمرائه (كما قلنا ذلك عن قرب بعد ذكر واقعة دومة الجندل)

سار سيدنا خالد ينسف الأرض نسفاً حتى وصل الى المسلمين فى ربيع الآخر ، وصادف وصوله وصول «ماهان» بجيش مددا للروم . فولى خالد قتاله ، وقاتل كل أمير من مأرائه متسانديں . فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعاً مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير ، فجمع الأمراء وخطبهم

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه البغى ولا الفخر . أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فأن هـــذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فأن هذا لا يحل ولا ينبغى . ان من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون انه رأى من واليكم ومحبته)

قالوا هات فما الرأى ؟ فقال .

(يؤمر على الجيش كله أمير واحد ، ويتعاورون الامارة حتى يؤمر كلهم ، وان يؤمر هو فى اليوم الأول) . فقبلوا مشورته

خرج سيدنا خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك جعل القلب (فرقا) وأقام فيه أبا عبيدة . وجعل الميمنة (فرقا) وأقام فيها عمرا وشرحبيل وجعل الميسرة (فرقا) وأقام فيها يزيد ، وجعل على كل فرقة رجلا من الشجعان (٢)

(١) واد فى الجنوب الشرقى من الشام

(٢) فى منزلة الكماة الآن

وكان عدد الفرق ستة وثلاثين فرقة ، وكل فرقة ألف رجل

انتشب القتال ، والتحم الناس ، وتطارد الفرسان . وأظهر خالد عجـائب الشجاعة والحمية الاسلامية . ثم ان الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم ، وأزاحوهم من مواقفهم ، فنهد سيدنا خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم ، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة ، فاخرج لهم المسلمون ، واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا خلقا كثيراً . وقاتل نساء المسلمين فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وأبلين بلاء حسنا

انتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة ، وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت سيدنا الصديق ، وخلافة سيدنا عمر بن الخطاب ، وتولية أبى عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش الا بعد الفتح

ربما يقول قائل : الشأن فى الحروب أن تكون سجالا فلماذا تفاوتت فى هذه الوقائع مواهب القوى والهمة والعزم مع ماهو معروف فى دولة الروم من تمام التطاول الى اجتناء ثمار الأعمال ؟ ولهذا فنحن قبل ذكر خبر وفاة سيدنا الصديق ذاكرون حديثا عن واقعة (اليرموك) هذه احدى وقائع العرب مع الروم . ترد برعات الفكر ونزعات الاهواء ان جمحت ، وتعرف الانسان أن هداية الدين وصحة الاعتقاد وكمال العقيدة اذا تمت لانسان ، ترق منه الوجدان ، وتلطف منه الأذهان ، وتنفذ منه البصيرة ، وترفع منه الفكر لاجتلاء النتائج ، ويصبح صاحبها وله من القدرة الباهرة مالا يهندم بناؤه أبدا

قال الامام أبو الحسن سلام الباهلى الاشبيلى فى كتابه الذى وضعه فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق عند الكلام على مراتب الجود ودرجات السخاء (حديث حذيفة العدوى) قال : انطلقت يوم (اليرموك) أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول : ان كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه فلما وجدته أشرت اليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى : نعم فاذا رجل يقول آه فأشار الى ابن عمى أن انطلق اليه . فجئته فاذا هو هشام بن العاصى . فلما أشرت اليه سمع آخر يقول آه . فأشار الىّ هشام أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قدمات ،

فرجعت إلى هشام فاذا هو قدمات ، فانصرفت إلى ابن عمى فاذا هو قدمات .

أى شىء أعظم من هذا الايثار ، وأى صبر أجل من هذا الاصطبار ، لقد تقصر الألسن عن تعديله وتكل الأفهام عن تحديده « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

﴿ وفاة سيدنا الصديق رضى الله عنه ﴾

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة) حم أبو بكر ، فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب ، فكلهم قال خيرا . فدعا عثمان بن عفان وأملى هذا العهد :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويوقن فيها الفاجر . انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ، فان صبر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

ثم أمر بالعهد فقرىء على المسلمين وقد أطل عليهم . فقالوا : سمعنا وأطعنا ثم نادى عمر فقال له : انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار . وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل ، وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، ألم تر ياعمر انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلا ؟ ألم تر ياعمر انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غدا الا باطل أن يكون خفيفا ؟ ألم تر ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ، ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه ؟ ألم تر ياعمر انما ذكر الله أهل النار بسوء

أعمالهم . فاذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم ، وانما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من شىء فاذا ذكرتهم قلت : أين عملى من أعمالهم ؟ فان حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه .

توفى الصديق رضى الله عنه . وغسلته زوجه أسماء وابنه عبد الرحمن . وكفن فى ثوبيه كما أوصى ، ودفن ليلا فى حجرة عائشة ، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله . فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة

تتوجت هذه الأيام بأعماله فكانت فى سلسة الأيام من أفضل العوامل فى احراز الفضائل ، لم شعث المسلمين بعد فرقتهم بردة الكثير من العرب ، جرد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الاسلام (الروم . والفرس) دعاهما لدعوة الدين أو الدخول تحت حكمه ، حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الامم . لتخلص هاتين الامتين من ملوكهما الذين يعدون رعيتهم عبيدا ، ونفوسهم آلهة ، وشهواتهم مهما عاد ضررها على الرعية سنة وفرضا . ففازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها

كانت حالة الخلافة الاسلامية الى عهده (انه الخليفة) وسيدنا (عمر بن الخطاب) قاضيه ، وسيدنا (أبو عبيدة أمينه) و (كتابه عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم)

كانت ولايات الاسلام فى عهده عشرة لكل واحدة وال

١ (مكة)وعليها عتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢ (الطائف) وعليها عثمان بن العاصى الثقفى
٣ (صنعاء) وعليها المهاجر بن أبى أمية
٤ (حضر موت) وعليها زياد بن لبيد
٥ (خولان) : وهى قبيلة عظيمة تسكن اليمن . وعاملها يعلى بن منية
٦ (زبيد) وعليها أبو موسى الاشعرى

٧ (نجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحرث وعليه جرير ابن عبد الله

٨ (البحرين) : من شواطىء بلاد العرب المطل على الخليج الفارسى ، وعليها العلاء بن الحضرمى

٩ (جرش) وهو مخلاف باليمن ، وعليه عبد الله بن ثور

١٠ (دومة الجندل) وعليها عياض بن غنم وقاعدة أعماله الجدة

وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشى المخزومى

وأمير جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى

سيدنا عمر بن الخطاب

﴿ رضى الله عنه ﴾

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدى (بن كعب بن لؤى) بن غالب بن فهر العدوى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى ، وكنيته أبو حفص ، ولقبه الفاروق .

ولد رضى الله عنه بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، وهو من أشراف قريش واليه كانت السفارة فى الجاهلية . فاذا وقعت قريش فى حرب بينها أو بين غيرها . أونافرهم ، أوفاخرهم أحد كان هو السفير فى أمرهم ، والنافر والمفاخر عنهم

تربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية . وكان من أكبر المعترضين للاسلام عند ظهوره ، ثم منّ عليه بالاسلام . فكان من أكبر أسباب معزته ببركة دعوته صلى الله عليه وسلم (اللهم أعز الاسلام بعمر) . فكان اسلامه فتحا ، وهجرته نصرا وامامته رحمة

أسلم فى السنة السادسة من النبوة . وله ست وعشرون سنة [illegible] رجلا واحدى عشرة امرأة . فما دان بالاسلام حتى أشار على النبى [illegible]

وسلم بترك الاختفاء والتستر وإظهار الدين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب (كأنه قارعة القدرة العظمى) ، ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن منظراً أنكى في عيون المشركين من هذا المظهر ، يشق مرائرهم ، ويحرج صدورهم ، تودون لهم من الاذى مايودون وماهم ببالغيه

كان رضي الله عنه نصيراً للدين بما آتاه الله من قوة البطش ، غير مستخف بعمله ولا هياب لأحد ، كأن الله قد اختار لسانه للنطق بالحق واختصه بذلك ، ليقرع الآذان ، ويشق الحجب ، حتى انه عندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة لم يتسلل لها خفية ، بل جاء إلى الكعبة وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ، ثم صلى ركعتين ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، وصاح بعظمائها شاهت الوجوه ، وأخبرهم بهجرته وقال لهم : من أراد أن تثكله أمه ، ويتيتم ولده ، وترمل امرأته فليلقني وراء هذا الوادي ، فلم يجسر أحد منهم على اتباعه

حضر المشاهد كلها مع رسول الله من بدر الى تبوك (وهو ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وكان محيبا في فعله وعمله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لقد كان فيما قبلكم محدثون ملهمون فان يكن في أمتي أحد فانه عمر)

كأن الله قد جعل الحق على لسانه وقلبه يقول به ، ومانزل بالناس أمر فقالوا فيه وقال الا نزل القرآن على نحو مايقول عمر ، فوقعت موافقات كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرين وأشهرها مسألة قتل أسرى بدر ، ومسألة الحجاب ، ومسألة الخمر ، ومسألة الاستغفار ، ومسألة الصلاة على أبي .

هو أول من سمي أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ الهجري ، وأول من اتخذ بيت المال وكان إيراده من زكاة المسلمين ، وجزية أهل الذمة ، وخمس الغنائم ، ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين فكان مطهراً من المظالم نقيا عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلما ، وأول من دون الدواوين لحصر أسماء العراق ، وأول من سن قيام رمضان وأنار المساجد في لياليه . وأول من عس الليل ، وأول من عاقب على الهجاء . وأول من جلد في الخمر ثمانين ، وأول

من حرم المتعة ونهى عن بيع أمهات الأولاد وجمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من مسح السواد ، وأول من حمل الميرة من مصر الى المدينة ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من اتخذ الدرة ، وأول من استقضى فى الأمصار ، وأول من مصرها . اختط الكوفة ومصرها ، والبصرة ، والجزيرة ، والشام ، ومصر ، والموصل . وأول من اتخذ دار المؤن ليعين منها المنقطع . فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب ، ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق مايصلح من ذلك

وله من الكرامات الغريبة ومن أشهرها أيضاً وأعجبها صيحته وهو على المنبر : (ياسارية الجبل) ، وكتابه لنيل مصر وابطاله تلك العادة السيئة وقطعها عن أهل مصر . ودعاؤه على أهل العراق وقد حصبوا أميرهم : اللهم قد لبثوا على فألبس عليهم وعجل بالغلام الثقفى يحكم فيهم حكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . والحجاج يومئذ ماولد

وأكبرها دلالة على فضله وأشدها علامة على نبله رضى الله عنه ما ذكره بعض المؤرخين (١) ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لوصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا [illegible] (البحر) فيكثرون بالمشرق وبلاد المغرب

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

لم يعب عن القارىء انا تركنا حادث الحصاصة الذى استخافه المثنى حينما قصد ترجمته ، وقلنا ان نهر الفرات أصبح حداً كذلك فى حرب الروم باليرموك بعد ما افتتحت جيوش المسلمين فى بلاد [illegible] عنه وأرضاه

---

(١) راجع الجزء الاول من كتاب [illegible] صفحة ٣٣٩

« أمر فارس »

ندب النـاس مع المثنى ، وأمر عليهـم أسبقهم انتدابا وكان أبا عبيـد بن مسعود ، وقال له وأوصاه وصية رجل دخل بين الأمم وطبائعها فقال له : ستقدم على أرض المكر والخديعـة تقـدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخـير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ؟ احفظ لسانك ، ولا تفشين سرك حتى لا تكون بمضيعة

ثم أمر المثنى أن يتقدم الى أن يلحق الجيش ، وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين ، فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة فى عشر ، وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين ببعض اختلافات داخلية على من يلى ملكهم ، ثم اتفقوا أخيرا على ولاية (بوران بنت كسرى) وان يقوم بأمرها (رستم) حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى يصلح للملك ، فاستعد رستم لقتال المسلمين ، وجهز الجيوش ، فأرسل جيشاً الى الفرات ، وجيشاً الى كسكر (١) وآخر لملاقاة المثنى ، وأغرى الفلاحين أن ينتقضوا على المسلمين ، فخرج المثنى من الحيرة الى خفان (٢) وانتظر أبا عبيد حتى وصل بعد شهر ، فسار منها الى الفرس فهزمهم ولحقوا بكسكر . فقصـدها أبو عبيدة وقد كانت جيوش الفرس تلاحقت فالتقى بهـم أبو عبيدة وهزمهم شر هزيمة : وبث سراياه وتجمع بما حواليه من الأنهار واعتصم بمعاقله حتى جهز الفرس جيشاً آخر تحت قيادة (بهمن) المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كاويان) (٣) طولها اثنا عشر دراعا فى عرض ثمانية أذرع مفصلة من جلود ، فحدثت بين المسلمين والفرس

---

(١) كسكر [illegible] على الشاطئ الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة وعلى آثارها واسط

(٢) خفان [illegible] الكوفة

(٣) درفش كاويان [illegible] أحد سلاطين العجم وفيما يقول الناس انه كان حدادا فى عصر الضحاك فلم يصبر على ظلمه فجمع الجنود الى [illegible] فى [illegible] [illegible] هذه [illegible] على الضحاك فتبعه الاهالى ثم قتلوا الضحاك [illegible]

وقائع على الفرات انتهت بهزيمة الفرس ، وتقدمت العرب حتى مكنها الله من سواد العراق واجلاء الفرس عنها

تضايقت الفرس من امتداد أيدي المسلمين لأخذ الجزية ، واستعمال ما افتتحوه من البلاد ، وزوال سلطتهم من غرب الفرات . وضعف بلاد الجزيرة ، وغير ذلك من الطوارئ التي تتبع الهزيمة والانكسار . فقامت عامة الفرس وخاصتهم تتدارك هذا الاضمحلال والزوال . فاجتمعوا ورأوا من آل كسرى ، رجل اسمه (يزدجرد) فتوجوه ونادوا به ملكا عليهم ، لجمع القادة ، وسير الجيوش .

بلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فجمع جيشاً عظيما تحت قيادة سعد ابن أبي وقاص الزهري القرشي ـ خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ، وأوصاه بوصية تنفذ فى القلوب قبل الآذان فقال له : ياسعد ابن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله . فان الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب الا بطاعته . فالناس فى دين الله سواء ، وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه . فسار سعد يقود هذا الجيش الشديد ، ويستأنس برأى أمير المؤمنين السديد ، ومعه أهل البأس والرأى ، وأهل الجهاد والصبر ، يضم اليه أقاصيه وطلائعه ، ويجمع اليه مكيدته وقوته ، ويتأمل فى عورات عدوه ومكاره مقاتله ، ويرهب عدو الله وعدوه ، حتى وصل الى (زرود) فلعه وفاه المثنى من جراحه التى أصابته . فجمع سعد جيش المثنى وضم رجاله الى رجاله ، وعبى الجيش ورتب المقدمة والساقة والميمنة والميسرة ، وسار حتى نزل القادسية (١) فأقام شهرا لا يأتيه عدو . ثم تراسل مع (يزدجرد) ملك الفرس ، وانتهى الحال على خروج رستم فى مائة ألف أو يزيدون لقتال المسلمين

فلما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معدى كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الاسدى يستكشفان خبر الجيش . ...

---

(١) القادسية قرية قرب الكوفة ـ ل ... حاج الكوفة الآن

الا قليلا ، حتى رأوا سرح العدو منتشرا على الطفوف ، فرجع عمرو وظل طليحة سائراً حتى دخل جيش الفرس ، وعلم حقيقة مافيه ورجع

تلاقى الجيشان ، ووقعت وقعة القادسية التى استمرت أياما وليالى ، ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة لنفار خيل العرب منها ، وأشدها لية الهرير التى حاربت فيها العرب والفرس من أذان العشاء حتى قام قائم الظهيرة وترك المسلمون فيها الكلام ، فلا تسمع الا صوت الحديد كأنما ساحة القتال سوق القيون . وانتهى الأمر بهزيمة الفرس التى لم يسمع بمثلها . وأخذت تلك الراية العظمى ، وقتل فيها رستم مع الكثير من مشاهير الفرس وقوادهم ، وباد عسكرهم قتلا وغرقا ، وأصبح أمر فارس بعد مالاقته من العرب فشلا لم تغن عنها الرجال ، ولا الأفيال ، ولا الأقيال

مكث سعد ريثما استراح جيشه ثم قام عازما على فتح المدائن ، فسار يفتح البلاد التى فى طريقه ففتح (البرس) ، و (بابل) والله ينصرهم بالرعب ، والفرس مدحورون لانهزامهم فى واقعة القادسية فى أسرع من لفت الرداء ، وناهيك بقتال من ملىء رعبا ، فهربت قوادهم قصد أحدهم (نهاوند) ، والثانى (الأهواز) ، وبقية المهزومين قصدوا المدائن ، فتبعتهم العرب تشردهم وتشتتهم ويفتحون مايلاقونه ، ففتحوا (كوثى) ، و (ساباط) ، وصالحوا أميرها على الجزية ، ثم سار الجيش قاصدا المدينة الغربية ، فرأى المسلمون ايوان كسرى يلوح أمامهم أبيض ناصعا ، فتذكروا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على مارواه مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله قال : (عصيبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى أوآل كسرى) ، فقويت قلوبهم ، وعظمت همتهم . وازداد اقدامهم واشتاقت نفوسهم الى أن يكونوا تلك (العصيبة) المعنية بالذكر فى حديثه صلى الله عليه وسلم فنادى ضرار بن الخطاب (الله أكبر) هذا أبيض كسرى هذا ماوعد الرحمن وصدق رسوله . وكبر المسلمون وحاصروا المدينة وفتحوا القرى المجاورة . وقد جمعت الفرس المعابر الا معبرة واحدة أو مخاضة تصلح للعبور دل المسلمين عليها

احدهم ، فعزم سعد على قطعها ، فأمر فعبرت جماعة : منهم (عدى) ليحمى الفراض حتى يعبر المسلمون . ثم أمر المسلمين فعبروا ، فلم يلتفت الفرس الا والفراض محمية ، والمسلمون يعبرون ، وقد سقطت الفرس فى أيديهم فهرب « يزدجرد » الى حلوان (١) ، ودخل المسلمون المدينة من غير معارض ، ونزل سعد القصر الأبيض ، واتخذه مصلى ، وصلى وقرأ فى صلاته قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين » ، وأرسلوا البشائر والغنائم لأمير المؤمنين ، فلما رأى رضى الله عنه ذخائر كسرى قال : (ان قوما أدوا هذا لذو أمانة) فقال له علىّ : (انك عففت فعفت الرعية) ، ثم فتحت (حلالاء) . وترك يزدجرد حلوان هربا وسار إلى الرى ، وفتحت (تيكريت) ، و (نينوى) ، و (الموصل) ، و (ماسبذان) ، و (هيت)

ثم مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق زمنا حتى رأى سيدنا عمر فى وجوه العرب تغيراً ، وفى أبدانهم ضعفاً ، فأمر سعدا أن يرتاد منزلا فاختار الكوفة (٢) بعد احتيار ، واختطت وبنيت دورها باللبن ، وجعل النهج الشارع الاعظم ٤٠ ذراعا ، ومايليه ٣٠ دراعاً ، ومابين ذلك ٢٠ ذراعاً والازقه ٧ أدرع . وأسس مسجدها ، وصارت قاعدة أعمال العراق وتتبع لها من أعمال الفرس الباب ، واذربيجان ، وهمدان ، والرى ، واصبهان ، وماه ، والموصل ، وقرقيسيا ، وكلها فى الجهة الشمالية

ثم فتحت تستر فتحها جيش البصره ، ثم السوس . ووافعة نهاوند وتم الانسياح فى بلاد العجم لضعف شوكه الفرس . فاصبح سيدنا عمر أمير المؤمنين لايخاف على المسلمين شيئا من توغلهم فى البلاد ، فعقد الالوية . وسارت الجيوش حتى فتحوا تبريز والباب وهو الفاصل بين الفرس وآرمينيه ودولة الروم وسار الأحنف الى خراسان ليلاقى يزدجرد الذى أقام (بمرو) يثير الفرس على المسلمين ، فلم(هراة) من بلاد الافغان فافتتحها ، وسار نحو (مرو الشاهجان) .

---

(١) حلوان بلدة بينها وبين بغداد أربعمراحل وهى تنتهى بالعراق [illegible]
المستديرة أو التى يخالطها [illegible]

وكتب الى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصغد ، وملك الصين يستمدهما فلم يغنياه شيئاً ، ثم افتتحوا : كرمان ، وسجستان ، ومكران . وانتهوا الى دوين النهر الى الحدود بين الفرس والسند

الى هنا انتهى مافعله المسلمون بالبلاد الفارسية جئنا منه بنتف مختصرة تدلك على غايته مفصلا

لاشك ان الاشراق النبوى كان ملازما لهؤلاء الفاتحين والمدد المحمدى يمدهم ، والا فكيف تبتدىء هذه الحروب سنة اثنتى عشرة من الهجرة بفتح أول بلد من بلادهم وهى (الأبلة) من حدود بلاد العرب عربا وتنهى الى ماوراء النهر وبلاد السند شرقا ، والخليج الفارسى جنوبا ، وبحر الخزر وأرمينية والروس شمالا فى هذه المدة التى لاتكفى مرتادا يريد أن يتعرف طبيعة هذه البلاد لشدة جسامتها

جاء (الهرمزان) المدينة ، ولاقى سيدنا عمر بن الخطاب وقال له فيما قال · (ياعمر كنا واياكم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بينناوبينكم فغلبنا كم ، فلما كان الآن معكم غلبتمونا فقال له عمر : انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا) لم ينكر سيدنا عمر بن الخطاب غلبتهم للعرب ، ولم ينكر السبب . فانظر لهذا الائتلاف والاتحاد فى القلوب كيف جعلها قلبا واحدا تتحرى رأى واحد وان كانت فى أجساد مختلفه ؟

عم الدين الاسلامى بجمع الحائدين للصراط السوى والمنهج القويم . وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن جور الملوك الى عدل الاسلام

اجتمع الفرس والعرب فى وقائع كثيرة مشهورة ، ولم يكسر لقوادهم راية ، ولم يفل لهم جيش . ولم ير المسلمون فى واقعة من الوقائع مساوين لأقرانهم فى العدد والعدد . بل كانت الفرس فى كل واقعة أضعاف العرب فما هذا الحال العجيب والنصر الغريب الذى لو أضيف اليه ماهو محقق باليقين فى الفرس من المهارة فى تعبية الجيوش . وإحكام معدات الدفاع ، ووفرة الأموال والعلم بطرق الدسائس والخداع لعدت مغلوبيتهم نادرة ، وغلبة العرب معجزة ؟ انظر لنور

الايمان الذي سطع فأزال كل مايلحق النفوس من الجبن ، والذل . والخوف ، وصرف الأيدي عن النهب والغارة . وانظر للقواد الذين لايخشون تهديدا ولا وعيدا ، ولم يسلكوا بالامة مسالك الأهواء ، لأنهم لم يكونوا دخلاء يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم . كانوا متفانين فى حب الدين ليس لهم شأن الا الامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وترك الزهو والكبرياء وحب الدنيا .

هذه يد بيضاء فعلت فى الفرس ماتبين لك أمره ، فانظر لأختها كيف كان أثرها أيضاً مع دولة الروم ؟

قلنا فى أول الكلام : اننا تركنا المسلمين فى حرب جيش الروم باليرموك بعد موقعتها الهائلة وهزيمة الروم عنها ، وأمير الجند أمين الأمة أبو عبيدة عامر ابن الجراح

بلغه رضى الله عنه أن مددا أتى دمشق فحصرها المسلمون : ابو عبيدة من جهة ، وخالد بن الوليد من أخرى . ودام الحصار سبعين ليلة حتى فتحت ، وفتح بعدها حمص ، وحماه ، والمعره ، واللاذقية . وحلب ، وقنسرين ، حتى وصلوا الى قرب انطاكية

ثم بدا لسيدنا عمر أن يطوف على المسلمين فى بلدانهم لينظر آثارهم . فسار عن المدينة ومعه غلام وبعير ، واستخلف عليها سيدنا على بن أبى طالب . وقدم الشام فسد فروجها ، ورتب صوائفها وشواتيها (١) ، واستعمل سيدنا معاوية على دمشق ، وعزل شرحبيل عن الأردن وقال : ماعزلته عن خيانة ، ولا جور ، ولكن أريد رجلا اقوى من رجل

ثم قيل له لو أمرت بلالا فأذن ، فأمره فأذن فلم يبق أحد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم الا بكى ، حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء.

ثم استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر ، وذكر له خبرها . وأنها قوة عظمة لمملكة الروم ، وكان عليها وال من قبلها يقيم بالاسكندرية . فسيره فقام به بجيش كثيف ، ثم أتبعه الزبير بن العوام ، وفتحت ، وعاهد أهلها على [illegible]

---

(١) الصوائف والشواتى هى الغزوات التى تحارب صيفا وشتاء.

ونزل المسلمون « الفسطاط » ، واختطوا حوله ، وأسس عمرو مدينته ، وشيد مسجده ثم سار الى الاسكندرية ، واجتمع له بينها وبين الفسطاط جماعة من الروم والقبط فأثخنهم ، ثم وصل الى الا سكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح مصر فلم يقبلوا ، ففتحها عنوة وغنم ما فيها ، وجعلهم ذمة وارتحل الروم الى القسطنطينية ، وأقام المقوقس والقبط على الصلح الذى عقده لهم عمرو ، وأبقى المقوقس على رئاسة قومه ، وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل من المهمات الى أن توفى ، وكان يقيم بعض الأوقات باسكندرية وفى بعض الأوقات بمنف بمصر

وبفتح مصر انتهى مافعله المسلمون أيضا مع الروم فى مدة سيدنا عمر . أخذوا ولايتين عظيمتين : الشام ، ومصر وجزأ من الأناضول . وبالاجمال أضعفوا شوكتهم ، وأزالوا ملكهم ، وأذلوا دولتهم

انظر لهذه الفتوحات التى أطاش أمرها الأحلام ، وحير الأفكار والأفهام ، وتأمل لمنصب الخلافة الحقيقية فى تلك الأيام ، ومايحف جماعة المسلمين من حرية فى دين ، وعلم فى يقين ، وسعة فى الوسائل المدنية الحقة ، والأمة قريرة العين بما تغنمه من نهضات الهمم بالفتح والاصلاح ، والأمور مستقيمة على مثل مادعا اليه الاسلام ، ونوره ساطع على الديار التى بلغها أهله ، والقلوب تفيض غيرة منه ، والألسنة تتدفق فصاحة به ، وكأنما المسلمون ربيع يساقون الى جدب ، فلم ينزلوا أرضا حتى يحيى الله مواتها بهم ، ويقع غلتها ببركتهم

انظر لمقام الخلافة مقام النيابة عن رسول الله تراه مشغولا بحراسة الدين وسياسة الدنيا ، مستمدا لأفعاله وأعماله وأقواله من كتاب الله تعالى الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . والأمة باذلة له الطاعة فى سرها وجهرها ، وهو لا يعتقد فى نفسه أنه أرقى درجة منها . يقول سيدنا أبو بكر : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، والفاروق رضى الله عنه يقول : من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه . وحاله بين المسلمين فى مالهم وحبايتهم وخراجهم كوصى اليتيم ان استغنى استعفف وان افتقر أكل بالمعروف وسعله بعد هذا النظر فى طلبات الرعيه وتفقد

أحوال البائسين من الأمة حتى لايكون لأحد عليه حجة يوم لاينفع مال ولا بنون ، فتراه يحمل الدقيق على ظهره ليوصله الى الفقراء والمساكين أو يدرك بالطعام صبية يتضاغون وامهم تلهفهم حتى يناموا ، وهو رضى الله عنه (غلق الفتنة) كما قال صلى الله عليه وسلم . لايزال بين المسلمين وبين الفتنة باب شديد الغلق ماعاش هذا بين أظهرهم

وأركان الدين قائمة . الصلاة الصلاة . امامة المسلمين فى الصلاة راجعة الى أرفع وظائفه . (والزكاة) القاطعة لكل احتيال بين أفراد الأمة ، فلا سلب ولاسرقة ولاضغينة تولدها عداوة . والحج من بقاع الارض يجددون به للأمير عهدهم ويشهرون طاعتهم ، والصوم الذى به تتهذب النفوس وتذوق به الأغنياء مرارة الفقر فترحم الفقراء . والحدود قائمة لايختل نظامها أبدا . والجهاد على ماعلمت من أحار هذا الفتوح

انظر لمواضع الشبه والنزعات الفكرية تجدها واقفة عند حد سلامة الاعتقاد ، والفقه عبارة عن علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . والتوحيد عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الاسباب والوسائط وهكذا ، والناس فى شغل شاغل بنصرة دين الله والاجتهاد فى تعميم أمره عن المناجزة فيه ماذا يعده الدهر الخؤون من البلايا والمصائب ينزل بها على المسلمين وهم فى أهنأ أوقات حياتهم وزيادة عزهم وسلطانهم ؟ وبماذا تخرج الايام عليهم وقد ظفروا بكل ماأحبوا ونالوا جميع ماسعوا فتحرمهم لذة ماذاقوا وتقطع عليهم ماتذوقوا ؟ أى مصيبة تعدها الليالى افسادا لحفاظ هذا النظام وسلبا لروح هذا النماء ؟

﴿ مقتل سيدنا عمر بن الخطاب ﴾

ليس بعد المصيبة برسول الله أعظم وأكبر منها بذ . قاصم الظهور وجائع النفوس

نزعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الانسانى ، قوضت الأصل وخرمت العلائق بين الصحب والأهل . ولا حول ولا قوة الا بالله

أتت مصيبة على المسلمين وكأنهم لم يسمعوا بالمصائب ويجهلون طرق العزاء فيها فأدهشتهم . فهم الى أنهم مذهولون منها أكثر مما هم محزونون .

أصيب رضى الله عنه فى المسجد بعد ما كبر . سمع عنه يقول : قتلنى أو أكلنى (الكلب) حين طعنه أبو لؤلؤة . وهو غلام مجوسى كان بعثه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة لما يعلمه من الصنائع والاعمال التى فيها منافع للناس فضرب عليه مائة درهم فى الشهر فاشتكى الى عمر رضى الله عنه فقال له : ماخراجك بكثير فانصرف ساحطا يتذمر ، ثم بعد أيام سأله عمر رضى الله عنه عن رحى تطحن بالريح كان أوصاه عليها فقال له : سأصنع لك رحى يتحدث الناس بها فقال عمر لاصحابه : لقد أوعدنى العبد . ثم كان منه الذى كان من طعنه بخنجره وطعن كل من يمر عليه فى المسجد يمينا وشمالا حتى لقد طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ثم انتحر

نظر عمر رضى الله عنه فيما عليه من الدين وأوصى بوفائه . ثم استأذن عائشة رضى الله عنها أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ثم قيل له أوص يا أمير المؤمنين قال : لا أتحملها حيا وميتا ان استخلفت فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وان أترككم فقد ترككم من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال فأوصى بالأنصار خيرا والمهاجرين والأعراب واستقبل الله بقلب سليم رضى الله عنه وأرضاه

سيدنا عثمان بن عفان

﴿ رضى الله عنه ﴾

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الأموى

ولد فى السنة السادسة من الفيل وأسلم قديما . وهو ممن أجابوا دعوة الصديق حين دعاهم للاسلام وهاجر الهجرتين الأولى الى الحبشة والثانيــة الى المدينة وشهد المشاهــد كلها (الا بدراً) لشغله بتمريض زوجته بنت رســول الله ؛ وأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غنيمتها وزوجه بنته الثانية ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره . ولذلك سمى ذا النورين فهو من السابقين الاولين ولهخصائص جيـلة : منها انه هو أول المهاجرين . وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض . وأحـد الصحابة الذين جمعوا القرآن . (جمع الناس على مصحف واحد)

وله أوليات : منها انه أول من أقطع القطائع . وخفض صوته بالتـكبير وخلق المسجد ، وأمر بالاذان الأول يوم الجمعـه . وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة . وأول من فوض للناس اخراج زكاتهم وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخـذ فى المسجد مقصورة مخافه أن يصيبه ما اصاب عمر (وما أغنى حذر)

بويع له بالخلافة بعد مادفن عمر بثلاث ليال والناس تستسر وتختلف الى عبـد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه فى من يلى منصب الخـلافة . ولا يخـلو به رجـل ويعدل بعثمان أحدا . وكذلك كان رأى أكثر أعيان الصحابه وأغلبية الشورى

شب عثمان رضى الله عنه على الاخلاق الـكريمة والسيره الحسنه والخ... الذى حصه الله منه بأحل السهام وضرب له فيه بأوفر الحظوظ و... حتى

كانت تستحي منه الملائكة . كانت له اليد البيضاء في تجهيز جيش العسرة الى تبوك فقد أنفق من ماله مالايجود به غيره وحفر بئر (رومة) وتصدق بهـا وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد من الناس

زاد في مسجد المدينة ووسعه وبناه بالحجارة وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج وجعل طوله ١٦٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا ، وناهيك برجل مامرت به جمعة منذ أسلم حتى أعتق فيها رقبة . كان عاملا أمينا للخليفتين رضى الله عنهما بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وعمل في خلافته ست سنين لا ينقم عليه أحـد وكان أحب لقريش من عمر بن الخطاب . لان لهم ووصلهم وفعل معهم خيرا

﴿ أعماله في خلافته ﴾

في حفظ القارىء اننا ذكرنا ماوصلنا اليه من أمر عسكر المسلمين الفاتحين في مملكتي الروم والفرس في عهد الخليفتين الصديق والفاروق . ولنذكر الآن مازاد على ذلك من الفتح في أيام الخليفة ذي النورين وما جرى في هذه البلاد

﴿ الـكوفة ﴾

استفتح سيدنا عثمان في بدء خلافته باستعمال سعد بن أبي وقاص عليها عملا بوصية عمر رضى الله عنه ثم عزله لخلاف وقع بينه وبين ابن مسعود الذي كان على خراج الـكوفة . وعين بعده الوليد الاموى . وعزل عتبة بن فرقد عن (اذربيجان) فانتقض أهلها فغزاهم الوليد وأغار على أهل (موقان) و (الطيلسان) ففتح وغنم وصالح كور (اذربيجان) وسير جيشا الى أهل ارمينية فشتتهم وأقام والياً على الـكوفة حتى شرب خمرا وشهدت عليه جماعة فأفتى على رضى الله عنه بعزله بعد جلده ، فعزله عثمان وجلده وولى مكانه سعيد بن العاص فقبلها على كره ، لأنه ممن أحس بالفتنة هناك خصوصا وقد حمله عثمان رضى الله عنه على تفضيل أهل السابقة . والقدم . ومن فتح الله على يده تلك البلاد

فشت القالة في الـكوفة في حق سيدنا عثمان وسعيد عامله رضى الله عنهما ،

ثم سار الكوفيون لفتح (طبرستان) ففتحوها ، فلما بلغوا (اذربيجان) تلاقوا بجيوش الشام وكانت بلية حب الرئاسة دبت فى النفوس واستقرت فى الصدور بسبب التنافس فى الاغراض . فاختصم رجال الجيش ، ثم وقع من الكوفيين ماوقع من الاستخفاف بأولياء أمورهم وكثرت وقائعهم فحملت رؤساؤهم الى الشام لمعاوية رضى الله عنه فلم تفدهم نصيحته ، فبعثوهم الى (حمص) لعبد الرحمن خالد بن الوليد فأدبهم ثم اتفق أهل الكوفة على خلع سعيد فخلع ، وتولى أبو موسى وبقى مع أهل الكوفة ينازعهم وينازعونه حتى مات سيدنا عثمان

البصره

وكان والى البصرة « أبو موسى الأشعرى » فعزله أيضا وولى عبد الله بن عامر فبعد قليل انتقض أهل فارس على أميرهم عبد الله وقتلوه ، ثم غدرت أهل « اصطخر . وخراسان » فسار اليهما عبد بن عامر وصالح أهلهما ثم انتقل لغيرهما من البلاد حتى مكن الله الأمن فى تلك الجهات ، وبينما هو كذلك واذا بعبدالله بن سبأ اليهودى نزل على حكيم بن جبلة العبدى بأراء غير مقبولة فأوغر الصدور على سيدنا عثمان ثم طردوه فدار الأمصار حتى أتى مصر وكان من أكبر الأسباب التى دعت لشق الطاعه فيها والافتراق والاختلاف

﴿ الشام ﴾

أما الشام فقد كان جمعها فى أول خلافته رضى الله عنه لمعاويه بن أبى سفيان فقام بالغزوات البريه والبحرية حتى بلغ عمورية وتمكن من الحصون التى بينها وبين طرسوس وانطاكية ثم افتتح (جزيرة قبرص) وكان المستعمل على غزو البحر عبدالله بن قيس فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها ثم قارب طليعة فانتهى لمرفأ من الروم فجاؤا فقتلوه . وبينما الحال كذلك خرج أبو ذر الغفارى فى الشام بمذهب يشبه مذهب الاشتراكيين « استغفر الله العظيم » الآن لأنه كان ينادى : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء وكان يستدل بقوله تعالى . . . .

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » فشكا الأغنياء مايلقونه لمعاوية وحق لهم أن يشكوا، لأن أول واجب على أهل السلطان تأمين الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم وهذا الحال من أكبر مواضع الخوف . فكتب الى عثمان رضى الله عنه فى شأنه بما كتب فطلب منه أن يشخصه اليه . فلما وصل المدينة ولاقى سيدنا عثمان رأى الأولى به أن يسيره الى الربذة (١) فأقطعه قطعة من الابل وأقام منفرداً الى أن مات

مصر

أما مصر فقد كان فيها فاتحها عمرو بن العاص فجعله سيدنا عثمان على الجند وولى عبدالله بن سعد خراجها فلم يتفقا . فجمع سيدنا عثمان لابن سعد الخراج والجند وعزل ابن العاص عنها ، ثم رأى أن يغزو افريقيا فسير جيشا للغزو فيها وفتح ماشاء الله أن يفتح وقتل جرجير ملكها . وما كاد هذا الحال يتسع ويستقر حتى وصلها عبدالله بن سبأ يحمل أسباب الفتنة ودواعى الشر كما سيجىء اليك

﴿ فصل ﴾

تأمل تجد فى كل مصر من الأمصار نادرة كأن الدين وقع فى يد من لا يفهمه أو فهمه وتغالى فيه أولم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج ولكن ضيق عقله ضل عن تصريفه ، أوكأنما افتكت من المسلمين العزيمة الأصلية أو اختلت دعائم الاعتقاد القديم . فاما إفراط باسم الدين كمقالة أبى ذر الغفارى التى لا تنطبق على مصالح البشر . واما تفريط كالكلام فى التغيير والانحراف عن سيدنا عثمان رضى الله عنه كدعوى عبدالله بن سبأ ، والعياذ بالله

يعجب الانسان أن أهل الدعوى للخير أصبحوا وليس لهم قدرة فى استعمال

---

(١) موضع قرب المدينة

أي ضرب من ضروب القوة فى حمل الأمة على الآداب الدينية كأن نورها الذى كان اخترق القلوب نفذ منها

ساءت حال أمة انتقل بأسها من أعدائها لنفسها فهى أقرب الى الفوضى من الاصلاح ، وأدعى للتفرقة من الالتئام والسبب العظيم لهذا البلاء الجسيم هى الفتن لعن الله مثيرها . ولذلك قال تعالى « والفتنة أشد من القتل » وقال . « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقيل فى الأثر (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)

قلنا : ان سيدنا عثمان ولى الخلافة واستمر ست سنين لاينقم الناس عليه شيئاً وانه لأحب الى قريش من سيدنا عمر بن الخطاب ؛ لأن عمر رضى الله عنه كان شديدا عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ثم توانى فى أمر بعضهم لما رآه فيهم .

اضطرت حالة ظهور القالة وفشو المنكر فى الأمصار أن يستعمل عليها أقرباءه وأهل بيته فى الست الأواخر من عهد خلافته لاختصاص أولئك به أكثر من غيرهم ، فكان هذا العلاج من دواعى استفحال الداء وزيادة الانحراف عن باب الخلافة

استكمل الفتح للأمة ، واستكمل الملك ، ونزل العرب بالأمصار على حدود ماينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة ومصر فالمختصون بصحابة رسول الله وهم المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم يمتون بذلك ويتسرفون به (ونعم التسرف) وسائر العرب الذين كان لهم فى الفتوحات قدم يرون لانفسهم فضلا ويفخرون به (وحق لهم الفخر) . نبههم لذلك وألفتهم لمعنى التفضيل والسابقة انغلاق باب الفتوح وتناسى ذلك الحال وذل العدو وزواله واستفحال الدعوة الاسلامية لهم وعظم ملكها فيهم ، فأخذت عروق الجاهلية تنبض وأنوف نفوسهم تشمخ .

وافق ذلك أياما من أواخر عهد سيدنا عثمان وقد كانوا أخذوا عليه فلما اخراج أبي ذر الغفارى الى الربذة (وقد سمعت خبره) وزيادة النداء الثالث يوم

الجمعة (وانما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى انحاء المدينة) واتمامه ا
فى منى وعرفة وكان الامر فى عهد رسول الله والخليفتين على القصر . (وعذره
فى ذلك ان حاج اليمن جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاته رضى الله عنه
فلم يرض بذلك لمن اتخذ بمكة أهلا وله بالطائف مال) . وتنازله لمروان بن الحكم
عن خمس مغانم أفريقية ولم يمنع الشرع أن ينفل من شاء من المسلمين وقد كان
رسول الله ينفل . نقموا هذه الأمور على سيدنا عثمان ولم يكن فيها ما يشينه ولم يخرج
فى شىء منها عن حدود الشرع ، ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لأنفسهم ما ليس
لهم فحقت عليهم العقوبة

قال الامام العينى فى تاريخه عقود الجمان : (وقد ذكر السبب فى ذلك ما معناه
روى أرباب السير منهم هشام ، والواقدى ، وسيف ، وغيرهم عن عقبة عن يزيد
الفقعسى . كان عبدالله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء أسلم فى
أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان وكان قصده بوار الاسلام . كان يتنقل فى البلدان
يحاول الفتنة فطاف الحجاز والشام والعراق ومصر وطاف كورها واظهر الأمر
بالمعروف وهو يصر الناس من عثمان فخرج معه جماعة من مصر من أهل خربتا
وهو أول وفد قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان على أعمال عماله الامويين بالامصار

دارت رحى الفتنة فى المدينة وملؤها كلاما فى حق أمراء الأمصار وبعث
سيدنا عثمان الى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه وهم عبدالله بن عامر أمير
البصرة ، وعبدالله بن سعد أمير مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان أمير الشام .
وبعد كلام كان معهم استشارهم فى تسكين هذه الفتنة فقال عبدالله بن عامر :
(أشغلهم بالجهاد) وقال ابن سعد (أصلحهم بالمال) وقال معاوية . (اجعل
كفايتهم لأمرائهم وأنا أكفيك الشام) وقال عمرو : (أرى أنك قد لنت
ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريق صاحبيك
فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين) فقال سيدنا عثمان : قد سمعت
كلما أشرتم به ولكل أمر باب يؤتى منه . ان هذا الأمر الذى يخاف منه على
هذه الأمة كائن وان بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين إلا فى

حدود الله ، فان فتح فلا يكونن لأحد علىّ حجة ، وقد علم الله انى لم آل الناس خيراً وان رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكنوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا ، ثم نفر ونفر الامراء الى بلادهم

أما أصحاب الفتنة الناقمون على عمال الأمصار المنحرفون عن عثمان فلم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم فيها : أقدموا علينا فان الجهاد عندنا فاتعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج .

اجتمع الكل بالمدينة ٥٠٠ من من مصر وعليهم الغافقى بن حرب ، ومثلهم من الكوفة وكذلك من أهل البصرة . وكل هذه الطوائف متفقة على الانحراف على عثمان (مختلفة فيمن يتولى الخلافة بعده) لكل منهم رأى وهوى ، فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله ، والبصريون الزبير بن العوام والمصريون « عليا » فجاء كل قبيلة لمن لهم فيه هوى وسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم وأتى أهل مصر «عليا» فسلموا عليه وعرضوا أمرهم فصاح بالمصريين وطردهم وقال : لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك قال طلحة والزبير .
ثم استقر الحال على الادعان بما طلبوه من اعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم واستعمل على مصر محمد بن أبى بكر وكتب له عهده وخرج محمد ودون معه يريدون مصر وانصرف الجميع مظهرين الرجوع

لم تتفرق أهل المدينة الا والتكبير فى نواحيها . وقد أحط بدار عثمان ونودى من كف يده فهو آمن ، فلزم الناس بيوتهم واستغربوا من رجوع الثوار بعد الادعان ، وجاء محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم . ما الذى أرجعكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : أخذنا كتابا من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا فسأل البصريين عن مجيئهم فقالوا لنصر اخواننا وكذلك قال الكوفيون فقال كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم من صاحبه على مراحل حتى رجعتم الينا جميعا ؟ (هذا أمر أبرم بليل) فقالوا احملوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا ، وأخذوا منهم الكتاب . فاذا هو من سيدنا عثمان الى عبد الله بن سعد بن أبى سرح يقول له فيه . اذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم [illegible] : وكيف

اتصل بكم هذا الكتاب ؟ قالوا بينما نحن مع محمد بن أبي بكر على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة واذا بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلب أو يطلب فقلنا له : ماقصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب ؟ فتلجج ومرة يقول : انا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول : انا غلام مروان ففتشناه فوجدنا معه اداوة يبست فيها شيء يقلقل فشققناها فاذا فيها ذلك الكتاب . فلم يبق أحد من أهل المدينة الا حنق على سيدنا عثمان وسألوه فى ذلك فقال والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال « على » ومن معه من كبار الصحابة صدق عثمان فقال : المصريون اذاً من كتبه ؟ فقال عثمان : لاأدرى قالوا : فيجترأ عليك . ويبعث غلامك . وجمل من ابل الصدقة . وينقش على خاتمك . ويكتب الى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لاتدرى . قال نعم قالوا ماأنت الا (صادق) أو (كاذب) فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا وان كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الامر ، ولا ينبغى ان يترك هذا الأمر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك فقال لاأخلع قميصا ألبسنيه الله

امتد الشقاق بقوة سلطان المغالين فلم يلهم الله أحدا ان يحقق أمر هذا الكتاب ويبين للناس مااختلفوا فيه ويكشف لهم عن وجه مااجتمعوا عليه . أو يتفكر فى كيفية رجوع هذه الفرق معاً بعد افتراقها وبعد سلوكها طرقا مختلفة . أو يكشف الغطاء عن ذلك السم السارى من قديم ، الذى دعى مثل عبدالله بن سبأ للخروج والتجول فى الامصار . أو يوفق الله جماعة الصحابة الى الوقوف أمام هذه الفتنه وقد كشرت عن نابها ، بل ضاع السداد وضعف الرشاد وقامت نزعة الحرب بين أهل الدين ، وقد كان اطفاء مثل هذه النار من أسهل الامور قبل ذلك على أى رجل من الجمهور الاسلامى

دافع سيدنا عثمان رضى الله عنه كثيراً عن نفسه وكتب للناس كتابا قرأه عليهم ابن عباس يوم التروية وأكثر من الرضوخ الى مطالبهم وكلما سد بابا فتحوا غيره . حتى منعوا عنه الماء فجاءهم على رضى الله عنه فقال . ياأيها الناس كيف تقطعون الماء والمادة والروم وفارس لتأسروا وتطعم وتسقى فقالوا والله ولا نعمة عين

ثم أن الثوار منعوا الناس عن مخالطته ومكالمته وقصدوا باب داره وحصروه . فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة ، فأمر عثمان بالكف عن القتال (انظر الى وازع الدين الذى كان فى نفس هذا الخليفة رضى الله عنه جعله يؤثره على أمور الدنيا وان أفضى ذلك للهلاك وحده دون الكافة فمنع المقاتلين عنه) ثم جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى ذلك لهلاكه

ثم أحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله ما رأى عن تلاوته ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الى عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يريدون أعظم منه وأمرهم بالانصراف ، ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاء فقتلوا هذه النفس الزكية

قتلوا خليفتهم ، وزوج بنتى نبيهم ، ذى النورين قتلوه ظلما . فقاتله ظالم ، وخاذله معذور . مات شهيدا مبشرا بالجنة على بلوى واختبار بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت . وأطنو (١) أصبعين من أصابع زوجته ولم يكن ما فعله من تجهيز جيش العسرة وحمد رسول الله مسعاته وقوله له ما على عثمان بن عفان ما عمل بعد اليوم ولا على احتجاجه عليهم ولا افحامه رادعا لهم ولا كاسرا من غربهم ، حتى وطئوا أضلاعه بعد موته وألقو على التراب جسده بعد سحبه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !!

نعم قد قرر الاسلام العبودية لله وحده ، والحرية فى ضمن دائرة الشريعة . المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات واطلاق الارادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس ، ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبدا كاملا لله حرا كاملا بالنسبة لما سواه

نعم . كان الصحابة يراجعون النبى صلى الله عليه وسلم الرأى قائلين له : هل هذا شىء فلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحى . فان قال هو من عندى

(١) أطن أصبعه قطعه

جاؤا بماعنـدهم من الرأى وربمـا رجع النبي الى رأيهم كما قد جرى فى بعض الغزوات والأمور المعاشية وقوله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأموردنيا كم)

نعم . وقع أبلغ من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم طعن سواد بن غزية بقدح (١) فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدرفقال قد أوجعتنى فأقدنى فكشف له عن بطنه وأذن للناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه واذا كان نحو ضرب فليقتص منـه . وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يومافقال انى كنت عارى الكتف أوالظهر فألقى الرداء عن عاتقه الشريف وشأن الرجلين أن يتمسحا به ويتوصلا لهذا الشرف العظيم .نعم . أن الصديق والفاروق · اقتديا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الأعمال فأوقف سيدنا عمر بن الخطاب «عليا» مع رجل من آحاد اليهود للمحا كمة فعاتبه (على رضى الله عنه) بعد المحا كمة بأن لم يسو بينه وبين خصمه · كناه هو . وسمى ذاك وفى التكنية تعظيم وراجعته امرأة وهو على المنبر فى مسألة تحديد المهر محتجة بآية «وءاتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا »فقال أصابت امرأة وأخطأعمر

كان هذا كله وحس التربية شائع فى الأمة على منهاج الكتاب والسنة وكل فرد حاصل على دقائق الأدب والتهذيب علما وعملا وتخلقا وتحققا جار على أ كمل نمط وطهارة الظاهر تحا كى طهارة الباطن صافية عن الكدر . والآداب راقية بذويها وأهلها الى مصاف الملك فضلا عن البشر

أهين بهذا التطرف والغلو فى الافتئات مقام الخلافة الذى كان حفاظ الدين وكانت تلك الصدمة الأولى . أهين ذلك المنصب الشريف الذى كان اليه المرجع فى حل المشكلات . والضياء فى ظلمة الشبهات واحتلوا بذلك دمالا تطير رغوته ولا تسكن فورته ولا يكل طالبـه . وكيف يضيع دمـه وقد انفصمت بذلك عروة الوحـدة وانحلت رابطة الاجتماع ونجم عن التفرق فى الخلافة الافتراق فى الدين نفسه فآلت الأمة الى الشقاق وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة وابتلى الدين وأهله بالمنازعة التى انقضى الزمان والأمة تتكلف علاجها ولا

(١) سهم لانصل له

تعان عليه وصدق « علي » رضى الله عنه فى قوله (ان قتلته ثلموا فى الاسلام ثلمة لا تسد الى يوم القيامة) . ومن يرد التعدد الى توحد والافتراق الى اجتماع وهو من وظائف الخلافة التى حدث عنها هذا الشقاق

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قدغص بالماء

هذه نتيجة الخروج على أولياء الأمور وأهل السلطان . فليندب المسلمون حظهم بعد هذه البلوى التى أصابت مستقر الحقيقة بسبب الاسراف فى حرية الدين والفكر الى هذا المقدار وجعل مزاياه الشريفة من العوادى عليه بسبب سوء الاستعمال . وليتق الله كل واحد من الزعانف الذين لعبت بهم الأهواء وأشعرت قلوبهم الأعداء بمثل هذه الظنون السيئة

استقامت الدنيا فى عهد الصاحبين ففتحت الفتوحات العظيمة التى لاتزال نفاخر بها الأجيال المتأخرة . ولو استمر الحال على ما كان لأمسى الدين الاسلامى نطاقا على الكرة الأرضية لا بدعوة الغلبة والقهر على لسان السيف كما يدعون ، ولكن بدعوة الحجة والبرهان على لسان الحق ان كانوا يعقلون

هـــده بعض آياته : اتفاق ووفاق ، وارادة سامية ، وحرية فكر مطلقة ومحافظة على الجار والجوار ، ومحبة اتصلت بأعماق القلوب ، وجد فى العمل ، وكراهة للقعود والكسل ، وميزان قسط قائم بالحق بين الناس ، وبصيرة فى كل شىء ، وقواعد عدل تمنع الاسترقاق وتحظر الاستعباد . وحفظ عهود وصدق ووفاء وتحريم للفواحش ماظهر منها ومابطن فلا غدر ولاخيانة . ولا خديعة ولاغيلة . والدين بين المسلمين النصيحة الخالصة يتواصلون بالحق . ويتواصون بالصبر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر

أية أمة ترى هذا ولا تفاخر فى طابه وتفتخر بعمله وتتباهى بالوصول اليه ؟ ولكن قضى الله أن يسلط على الأمة شرارها فتصبح ولا تتواصى بحق ولا تعتصم بصبر ولا تتناصح فى خير . بل نعاش افذاذا ونعمل (ان كنا نعمل) افرادا كأن لم تجمعنا مع أحد صلة ولم نمت اليه وشيجة فضلا عن المذاهب المتعددة التى انتشرت بين المسلمين وأخرجتهم عن كثير من مزايا الدين . ..ن [illegible] حتى

أبواب الكفر والزندقة والكذب على الله والزور والافتراء على أنبيائه وأوليائه وأصبح الحديث بالتظني . كل واحد يأتيك منه بما ينصر مذهبه ويؤيد طريقته حتى أصبحنا والحال كما قيل عن المسلمين لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

سيدنا على بن أبى طالب

(رضى الله عنه)

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى القرشى بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وهو أول خليفة أبواه هاشميان ولد رضى الله عنه فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين فأقام بها رضى الله عنه نحو امن خمس سنين لم يصف له فيها يوم . وكان أمر الله قدرا مقدورا

بعث عليه الصلاة والسلام و «على» رضى الله عنه دون البلوغ . وكان معه فى منزله فاهتدى بهديه وسلك سبيله . ولم يتدنس بدنس الجاهلية ولم يعبد وثنا قط . فهو أحد السابقين الى الاسلام وأحد العلماء الربانيين ، والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين . وأحد من جمع القرآن الكريم وأكرم أهل العباء والمباهلة وأخ رسول الله فى المؤاخاة أخرج الترمذى عن ابن عمر قال آخى رسول الله بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه فقال آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد ، فقال النبى أنت أخى فى الدنيا والآخرة

شهد الغزوات كلها (الا غزوة تبوك) فانه استخلفه النبى على المدينة فلما أسف رضى الله عنه قال له النبى صلى الله عليه وسلم (أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى) . كان له القدم الثابت فى جميع الغزوات ، فهو أول المبارزين يوم بدر ، وأول الثابتين يوم أحد وحنين . أصابته فيه ستة عشر ضربة . وأول الفاتحين يوم خيبر . وأول السابقين يوم الفتح

أنابه عنه صلى الله عليه وسلم فى الاقامة بعد هجرته بمكة أياماً أدى فيها الأمانات والودائع وقام بالوصايا ، فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم افتداه بنفسه ونام على فراشه والمشركون يظنون أنهم يحاصرون النبى صلى الله عليه وسلم حتى أصبحوا ووجدوا عليا رضى الله عنه . ثم أنابه أيضاً فى قراءة أوائل التوبة فى موسم الحج إيذانا ببراءة رسوله من المشركين

ماذا يقول القائل فى هذا الامام ؟ وكل وصاف منسوب الى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول ، وكفى بشهادته صلى الله عليه وسلم بأنه باب مدينة العلم دليلا على مكنون السر الذى فيه . فهو أول فى العلوم ، أول فى الشجاعة ، أول فى السخاء ، أول فى الحلم والصفح ، أول فى الفصاحة ، أول فى الزهد ، أول فى العبادة ، أول فى التدبير والسياسة . أشد الناس رأيا وأصحهم تدبيرا لولا تقاه لكان أدهى العرب

كأنما أفرغ من كل قلب . فهو محبوب الى كل نفس . ظهر من حجاب العظمة بمعاليه فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة . أهل الذمة تحبه والفلاسفة تعظمه وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها . ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها كأنما هو فأل الخير وآية النصر والظفر

يقطع اللجاج مع هذا القضاء الحاتم الذى ألم بالامام رضى الله عنه فى أيام خلافته ، فلم يستطع أن يأتى فيها بشىء مع هذا العرفان العظيم . وأصبحت أيام خلافته قضاء (النجاة من تبعته السكوت عنه)

لابد للقارىء أن يستحضر فى ذهنه الحال الذى كان فيه المسلمون بعد قتل خليفتهم المظلوم ويتبصر فى فكره حالة الحيرة التى أطبق لها الذهول العام فحالت فى الضمائر بما يسعه الامكان فوضى لا ملجأ ولا سند . حيارى لا قود ولا عضد وأمامهم فتنة كالحسكة شائكة من كل طرف والاضطراب قد ألم بمشاعرهم ومناصبهم وحاضرهم

قال سيدنا عثمان لما عتب عليه (الغافقى بن حرب) أمير على المدينة

خمسة أيام . وعلى ممتنع عن البيعة . وأتى الكوفيون الزبير ، والمصريون طلحة فامتنعا أيضا . وأهل الأمصار رأوا أن رجوعهم الى الأمصار بغير امام يوقع الخلف والفساد فبقوا وهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولاضرا . وهرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام ومعهم قميص عثمان وأصابع زوجته فأثاروا الشعور وهيجوا الأفكار ونصبوه على منبر دمشق وقامت الناس تطلب القود . وطار الخبر لمكة واتصل بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى عائدة . ونادوا فى المدينة برجوع الاعراب الى بلادهم فأبوا

هكذا كانت الحال فى هذه الأمة التى فاضت ينابيع حياتها حتى شملتها فجمعت شملها وكانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وأهل الأرض بمدنيتها

ثم اجتمع كثير من المهاجرين والأنصار ، وأتوا عليا يبايعونه (فأبى) لأنه قدر المستقبل حق قدره وعلم أنه انما يستقبل فتنة سائرة لامرد لها فقال لهم (التمسوا غيرى) أوقال . (أكون وزيرا لكم خير من أكون أميرا ومن اخترتم رضيته ، فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لاتقوم به القلوب ولاتثبت عليه العقول) فناشدوه الله والدين وألحوا عليه وقالوا لانعلم أحق منك ولانختار غيرك (فأبى) فخوفوه الله فى مراقبة الاسلام حتى غلبوه فى ذلك فقال (قد أجبتكم)

رأوا أن هذا الامر لا يتم الا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب اليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه قال قوم : (كرها) وقال قوم : اشترطا عليه اقامة الحدود (يريدون القود من قتلة عثمان)

ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع كبير من أكابر الصحابة فى المدينة كسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر . وأسامة بن زيد . والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام . وقدامة بن مظعون . وأبى سعيد الخدرى وكعب بن عجرة . وكعب بن مالك . والنعمان بن بشير . وحسان ابن ثابت . ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وغيرهم

رأى الامام رضى الله عنه أن بيعته تمت بالأغلبية فقام وخطب الناس ودعاهم الى الخير وحذرهم الشر وبدأ فى أعماله

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

بدأ بتغيير عمال الأمصار (ولم يسمع رأى القائلين باستبقائهم حتى يستقر الأمر) وكيف لا يبدأ بهم وهم داعية الفرقة وسبب الشتات ومن نجم من بينهم الاختلاف ؟ فبعث على (البصرة) عثمان بن حنيف الانصارى بدل عبد الله ابن عامر ، وعلى (الكوفة) عمارة بن شهاب بدل أبى موسى الاشعرى ، وعلى اليمن عبيدالله بن سعد ، وعلى (الشام) عثمان بن حنيف بدل معاوية بن أبى سفيان ، وعلى (مصر)قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد . فاما صاحبا (البصرة واليمن) فلم يردهما عنهما أحد . فأقاما وافترقت مصر على صاحبها ففرقة دخلت فى الجماعة ، وفرقة اعتزلت وقالت لانكون مع (على) الا إن قتل قتلة عثمان ، وفرقة قالت نحن مع « على » الا ان استقاد من اخواننا (١)

ولاقى صاحب الكوفة وهو قريب منها طليحة بن خويلد الاسدى فقال له : ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا ، فرجع وقابل صاحب الشام عند تبوك خيلا عليها رجال من الشام فردوه وامتنع سيدنا معاوية عن مبايعة على ؛ لأنه ظن فيه هوادة (٢) فى نصرة عثمان على قاتليه ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيما فى القصاص من قتلة عثمان لانه وليه والله تعالى يقول : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل » ولم ير فى الامتناع عن البيعة خروجا على الامام لعدم انعقاد البيعة لتخلف كثير من أكابر الصحابة عنها ولم يكن اجتمع أهل الحل والعقد . فأرسل رجلا بطومار ليس فيه شىء من الكتابة وعنوانه (من معاوية الى على بن أبى طالب) وأمره اذا قدم المدينة أن يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف ففعل الرجل ما أمر به حتى دفعه الى على رضى الله عنه ففتحه فلم يجد

---

(١) انظر لهذا الخلاف ... [illegible]

(٢) الهوادة اللين أوما يرجى به الصلاح

فيه كتابا فقال للرسول : ماوراءك ؟ فقال : آمن أنا ؟ قال نعم . قال : ترك لايرضون الا بالقود . قال : وبمن ؟ قال منك وتركت ستين ألف شيخ تحت قيص عثمان منصوبا على منبر دمشق فقال : اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان قد نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله .

أصبحت الأمة مضطربة مختلفة المقاصد (ووجهتها كلها الحق وهو ضالتها) . معاوية يرى أن البيعة لم تنعقد والامام يرى انعقادها ، وطلحة والزبير يرفضانها ، لأنهما اشترطا إقامة الحد على قتلة عثمان والامام يقول لاقدرة لى على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتنظر الأمور وتؤخذ الحقوق ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها منادية فى الناس بدم عثمان لامتحققة بأنه قتل مظلوما فى البلد الذى يأمن فيه الطير فى الشهر الحرام

خطبت أم المؤمنين فى الناس وانتصرت لسيدنا عثمان وطلبت القود له من الغوغاء والعبيد الذين اجتمعوا عليه وتبعها كثير لان معظم الناس ذهبت عقولها ولم يبق من خصال العرب الكريمة الا أشدها (ثوران فى العقول لأخذ الثار) وأكثر الصحابة يرون أن أول واجب على المسلمين فى هذا الوقت تتبع القتلة . والقصاص منهم اقامة لحد الله الذى لايصح تأخيره مهما نتج منه جعلوا اقامة هذا فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصله اليه ، ولذلك لم يرالزبير ولاطلحة فى هذا خروجا على الامام لأن البيعة لم تنعقد له

الوقت الذى يؤول فيه أمر الانتقاض على الخليفة الى قتله ويتناسى الناس فيه ذلك الحال القديم من احترامه ، وتكون فيه الأفكار مرتعاً لخطرات الخروج من كل طرف لايبعد أن يكون من مصائب الامام علىّ فيه رميه بأنه منحرف عن الحق فى حق قتلة عثمان

استقام رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين على قصد البصرة فقصدوها فلما قاربوها راسلها أميرها فأعلمته انها جاءت لتخبر الناس بمقتل عثمان وان الغوغاء استحلوا الدم الحرام وسفكوه وقتلوا امام المسلمين بلا ترة ولا عذر وأظهر الزبير وطلحة أنهما بايعا (كرها) ، فصمم صاحب البصره أولا على منعها ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالىء طلحة والزبير فدس لاهلها واحدا من

الناس فظهر له أن فيها أنصاراً لهذا الأمر ، فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس فتبعها جمع من أصحاب عثمان وخرج لها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة وقاتلهم حتى إذا ذاقوا حَرّ السلاح تنادوا الى الصلح حتى يرسلوا الى المدينة ليعلموا أكانت بيعة طلحة والزبير طوعا أو كرها فان ثبت أنهما أكرها ترك ابن حنيف البصرة فذهب كعب بن سور قاضي البصرة رسولا من عند أهلها ، فلما قدم المدينة قال : ياأهل المدينة أنا رسول أهل البصرة اليكم أسألكم أَوُكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين فقال اسامة بن زيد : بأنهما أكرها فلقي اسامة بن زيد من والى المدينة سهل بن حنيف أخي عثمان بن حنيف اهانة وبلغ هذا الخبر عليا ، فأرسل الى عثمان بن حنيف يقول والله ماأكرها على فرقة . ولقد اكرها على جماعة وفضل ، فان كانا يريدان الخلع لاعذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا ، فلما ذاع خبر اكراه الزبير وطلحة طلبا من ابن حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجاً بكتاب من عليّ فاستولوا فى ليلة على الكوفة وحبسوا ابن حنيف فبلغ ذلك حكيما فاقبل وقاتل حتى قتل كثير ثم أقامت أم المؤمنين ومن معها بالبصرة

كل هذا والامام بالمدينة يعبى فى حبسه الى الشام فلما بلغه الخبر دعى وجوه أهل المدينة . لانه يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة ، فخف قوم وتثاقل قوم وظهر آخرون برأى مثل أبى موسى الأشعرى وقد سألوه الخروج والقتال مع عليّ : فقال (ان بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فان لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا)

أصبحت هذه الفتنة صماء لايعلم فيها ان كان النائم خيرا من اليقظان وإن القائم خيرا من القاعد فكم من رجال أغمد السيف وآخر نصل سيفه وكان الجدال فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه . حتى قام القعقاع بن عمرو وقال : (أيها الناس لابد من امارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم وهو يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة

الامة الفقيه فى الدين فمن نهض اليه فانا سائرون معه) ثم قال الحسن بن على رضى الله عنه (أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وان أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالما أو مظلوما ، وانى أذكر الله رجلا رعى حق الله الا نفر فان وجدنى مظلوما أعاننى وان وجدنى ظالما أخذ منى . والله ان طلحة والزبير أول من بايعنى وأول من غدر . فهل استأثرت بمال أو بدلت حكما فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر) فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم فى نهر الفرات والباقون ركباً فالتقوا بامير المؤمنين فرحب بهم وأثنى عليهم ، ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير فقدم القعقاع البصرة وبدأ بأم المؤمنين فقال : أى أمه ما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى الاصلاح بين الناس قال : فابعثى الى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما فبعثت اليهما فحضرا فقال القعقاع . انى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الاصلاح فهل أنتما متابعان ؟ قالا نعم : قال فأخبرانى ماوجه هذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا الامر ان ترك كان تركا للقرآن قال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذى حذرتم وقويتم به هذا الامر اعظم مما أراكم تكرهون . وهذا أمر دواؤه التسكين فان سكن اختلجوا ، فان انتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثار ، وان ابيتم فعلامة شر قالوا أصبت وأحسنت فان رجع على وهو على مثل رأيك صلح الامر فرجع الى على واخبره الخبر وأشرف القوم على الصلح واقبلت الوفود من كل جهة وأصبح الكل متفقين على الصلح

سمع بذلك السبئية (أصحاب ابن سبأ) وتحققوا أن الصلح انما يعود عليهم بالوبال ، لأنه إن تم كان على قتلهم . لانهم هم الذين اثاروا أمر

عثمان فباتوا شر ليلة وقد اشرفوا على الهلكة ، باتوا يتشاورون فلم يجدوا غير انتشاب الحرب ثم اصبح الناس والتقى الجيشان خارج البصرة وخرج الزبير على فرسه بين الجيشين فخرج اليه علىّ حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على للزبير : لعمرى لقد أعددتما سلاحا ورجالا ان كنتما أعددتما عندالله عذرا فاتقيا الله ولا تكونا « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما فهل من حدث أحل ذلك ؟ فقال طلحة : البت على عثمان فلعن علىّ قتلة عثمان . ثم ذكر الزبير بأشياء : منها أنه قال له (أتذكر يوم مررت مع رسول الله فى بنى غنم فنظر إلىّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن أبى طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم) فرجع الزبير وهو حالف أن لا يقاتل علياً . وشعر أنه أخطأ فى اجتهاده وأصبح الرجوع للحق أولى ، لأنه يعمل لله ثم رجع الناس والجميع لا يشكون فى الصلح وباتوا بأهنأ ليلة وبات الدخلاء بأسوأ حال .

فلما كان الغلس قاموا من غير أن يشعر بهم أحد وقصد مضرهم مضر البصرة ، وربيعتهم ربيعة البصرة . ويمنهم يمن البصرة واعملوا السلاح وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم ودسوا لكل طرف من يعلن الخبر فسأل طلحة والزبير عن الخبر فقيل لهما طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء . وسأل على فقيل له ماشعرنا الا وقوم منهم يعملون فينا السلاح فقال : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء . ونادى فى الناس أن كفوا واخرجوا أم المؤمنين فى هودجها لعل الله يصلح بها [illegible] مالنبل وهى تنادى (اذكروا الله والحساب) ولا يأبون الا اقداما [illegible] حمية أهل البصرة لحرم رسول الله ولم يكن محيص عن القتال فاقتتلوا [illegible] الزبير القوم ورجع فتبعه من يعرف بابن جرموز وقتله وهو يصلى بوادى السباع

أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة والنجدة فقتل دونه نحو [illegible] من قريش وعدد عظيم من غيرهم واشتد أهل الكوفة على الجمل [illegible] أن البصريين لا ينهزمون مادام واقفاً فرماه كثير [illegible]

الجمل وتفرقوا عنه ثم حملوا هودجها وهو مثل القنفذ من كثرة السهام وظهرت أثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الذى لم يكن فيه لأحد مأرب. ثم دفنت القتلى وأطاف عليهم «على» فلما أتى على طلحة قال : لهفى عليك أبا محمد انا لله وانا اليه راجعون ، والله لقد كنت أكره ان أرى قريشا صرعى وأنت كما قال الشاعر

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

سيرت أم المؤمنين الى مكة ورجع علىّ الى الكوفة التى اتخذها مقر خلافته وأرسل يدعو معاوية للدخول فيما دخل فيه الناس فامتنع حتى تقتل قتلة عثمان ويختار المسلمون لأنفسهم إماما

سار الامام لمحاربة أهل الشام وسار اليه معاوية والتقى الجيشان فى سهل صفين ومشت السفراء بين الطرفين فكان فى سفراء الامام من يجهل باب الاصلاح والفساد فاحتد فى الكلام حتى اشتد معاوية فى الخصام وقال ما بيننا الا السيف

تناوشا وقتاحتى دخل شهر المحرم لسنة ٣٧ فعقد على ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعاً فى الصلح واختلفت بينهما الرسل وانتهت المخابرات على اصرار علىّ مبايعته ثم النظر فى أمر قتلة عثمان ، وأصر معاوية على أخذ القود من قتلة عثمان أولا ثم النظر فى البيعة

بذكل طرف عهد هدنته وابتدأ القتال أول يوم من صفر طول النهار وهكذا الايام التالية . فلما كان مساء الثلاثاء لثامن صفر أجمع علىّ على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله فلما أصبحوا التقى الجيشان وانصرفا وكل غير غالب ثم دارت رحى الحرب بشدة يوم الخميس عاشر صفر ودخل الليل ولم يصد الناس عن القتال اقباله فاستمروا فلما أصبحوا كان الملل والسآمة فى جيش الشام أبين ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكما بيننا وبينهم فرفعوا المصاحف على الرماح ونادى مناد يقول هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق ؟

فلما رآها أصحاب على اختلفوا ثم اتفقوا على ارسال رسول يسأل عما أريد من رفع المصاحف فقالوا الرجوع الى ماأمر الله فى كتابه تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلا نرضاه يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه. ورضيت الناس بهذا وقبلت. واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكتبوا بذلك عهدا وان يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو باذرح فى رمضان

انصرف الناس من هذا المكان المشؤوم الذى اجتمعت فيه فئتان عظيمتان من المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً. ولكن الذى يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لان الجمع لم يقصدوا فى محاربتهم غرضا دنيويا لايثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد. وانما اختلف اجتهادهم فى الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما بقصد الباطل انما قصد الحق وربما اخطأ والكل كانوا فى مقاصدهم على حق

رجع الامام الى الكوفة ووقع الشقاق فى جيشه. فريق راض بالتحكيم، وفريق كاره له. وهؤلاء اعتزلوا الامام ونزلوا حروراء وبايعوا شبث بن ربعى على القتال وان يكون الامر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم جاءهم الامام ونصحهم فثابوا الى رأيه ودخلوا مصرهم

انقضى الاجل وحل رمضان واجتمع الحكمان فى السنة السابعة والثلاثين وخلع كل منهم صاحبه وأثبت عمرو معاوية وكما سبقنا رأى الامام أن كل واحد اتبع فيه هواه وافترقا ولم يفيا بما تعهدا به فصمم على حرب معاوية مرة ثانية ولحق عمرو بالشام وبايعه مع أهلها

أصبح الحال وجيش أمير المؤمنين موطن فتنة كلما أطفئت واحدة ودب أخرى فمن خوارج عليه، ومن علاة فيه، ومن محاربين معه، ومن معاندين لاجله والسلطة تسير الى الوراء، وأصبح المقاتلون معه مجروحين ...

والبلاغة لا بالطاعة والامتثال كأنما حربهم معه مجاملة ومعاوية بالشام مستقيم له الامر وحده أحسن جند فى طاعة الامراء .

بعث عمرو بن العاص الى مصر وفيها قيس بن سعد بن عبادة فبايعه أهلها وهو أخبر بطرق استجلابهم . واعتزلت طائفة منهم وعليهم يزيد بن الحارث الدلجى بخربتا ووقع الخلاف بين الامام وبين قيس فى شأنهم فعزله وولاها محمد ابن أبى بكر . وعلم أمير المؤمنين ان معاوية بن خديج دخل مصر مطالبا بدم عثمان ورأى أن محمدا لا تمكنه المقاومة فولى على مصر الأشتر بن الحارث النخعى وكتب اليه عهدا جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة ولكن قدر الله بموته فى الطريق، وبقى فى مصر محمد بن أبى بكر حتى دخلها معاوية بن خديج وقتلوه وحرقوه فى جوف حمار وبقتل محمد بن أبى بكر صارت مصر فى طاعة معاوية وبايع له أهلها . وبعد أن تم له ذلك سير الى البصرة عبدالله بن الحضرمى، وسير السرايا الى بلاد أمير المؤمنين حتى دخلت الحجاز واليمن فى طاعة معاوية وأصبح الامام فى وسط من الخلق مضطرم بالخلاف والشقاق فريق شيعته وآخرون خوارج (لا عليا ولا معاوية) ، وفريق منافق يظهر الطاعة ويخفى العداء وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف وتغيرت الناس حتى سأل رجل عليا رضى الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر قال لان أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك وملّ أمير المؤمنين الامارة وسئمها وكأنه استشعر راحته من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى بضمه الى اخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . فصرح بذلك فى كثير من خطبه ومواعظه الأخيرة

اجتمع ثلاث من الخوارج وتذاكروا ما حل باخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم فاتفقوا على أن يذهب أحدهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى الكوفة ليقتل عليا ويذهب الثانى وهو البرك بن عبد الله التميمى الى الشام فيقتل معاوية ، ويذهب ثالثهم وهو عمرو بن بكر التميمى إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص واتخذوا لهم ليلة يعتدون فيها ما اتفقوا وهى صبح ليلة الجمعة لسبع عشرة

خلون من رمضان . فاما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره في صلاة الصبح فضربه بالسيف فوقع في اليته ولم يمته فأمر به معاوية فقتل. وأما عمر بن بكر فذهب إلى عمرو بن العاص فلم يخرج إلى الصلاة لعذر أصابه واستناب خارجة بن حبيب السهمي فضربه الخارجي فقتله ظنا منه أنه عمرو فخاب ظنه وقبض عليه فقتل وضرب به المثل (أراد عمرا وأراد الله خارجة) وقصد عبد الرحمن بن ملجم أشقى البرية الكوفة وانتظر عليا فبينما أمير المؤمنين ينادى الصلاة الصلاة الصلاة إذ ضربه بسيفه قائلا (الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك) فقال على (لا يفوتنكم الرجل) فشد عليه الناس وأخذوه ثم قال على (النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ضربة بضربة ولا تمثلوا به وان بقيت رأيت فيه رأيي) ثم دخل جندب فقال إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما (أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شيء أزوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضائع واصنعا للأخرى وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصراً وأعملا بما فى كتاب الله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم) ثم نظر الى محمد الأكبر ابن الحنفية فقال له (هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال نعم قال فاني أوصيك بمثله) ثم لم يزل يذكر الله حتى مات فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص

ليتأمل القارىء مقدار تبدل الاحوال واختلاف العقائد وتشتت الاهواء بالفتن قتل سيدنا عمر رضى الله عنه سرا وتولى بعده سيدنا عثمان فازداد الطيش حتى قتل رضى الله عنه جهرا . وتولى الامام فكان بين لجاج وعناد حتى جهزت لحربه الجيوش . وهكذا كل أمر يصعد منزلة منزلة حتى يبلغ الغاية ولا سبب لذلك الامفارقة أدب الدين وقد مكث رضى الله عنه فى الامارة ماشاء الله ان يمكث وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر سخطه لمن عصى ورضاه لمن أطاع فاذاق الامة كأس الضر فى نكث بيعة خليفة رسوله وقتله ظلما [illegible] وتعالى أراد أن يمثل للمسلمين عيانا مزايا الوحدة والمحبة والائتلاف . و[illegible] بعده

والعداوة والشقاق . فأوقع بأسهم بينهم حتى يتوبوا ولا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق العصا بينهم وبين أئمتهم وليعلم جماعة المسلمين فى كل آن أن نصر الله بعيد عنهم كلما فشلوا وتنازعوا وصرفوا التعلق عما كانت عليه الناس فى عهد السلف الصالح

لو أصلحت دعوة من النفوس فاسدها وداوت مرضها لكان لدعوته رضى الله عنه فى صلاح حال المسلمين جميل الأثر . ولو ساعد الدهر لارتقت الأمة العربية فى عصره حتى شقت الفلك بارتقائها ونافست بواسطته الأمم فى كل شيء ، وناهيك بمن جمعت بعض حكمه ففاقت بها الأسمار وتليت بعض معجزات بلاغته فزلزلت على ليها ما استحجر من الأرواح . أى وجدان لطيف هو يخاطب الناس بما يقيمهم ويعينهم وينعشهم ويرقى بهم بسلم البرهان الى الكمال . تتعلق الأفكار دون الاتيان بمثل عهده رضى الله عنه للأشتر النخعى الذى ملأه بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالب الناس بالطاعة عليه وحملهم باتباع مافيه . هو أول قانون لسير العمال فى الأمة الاسلامية جلى فيه رضى الله عنه عن الغاية بما لم تصل مدارك الكثير الى مرماه . ولما كان هو من أحسن ماتتعلق به النفوس وتتشوق لرؤياه العيون بعد سيرته رضى الله عنه أتينا به خاتمين سيرته الشريفة بخير أعماله ، وليشهد الناس هذه الحكم التى تفيض من الافئدة ، والفصاحة التى تتدفق عن الالسنة . والله على كل شيء قدير

لولا عجائب صنع الله ما نبتت هدى الفضائل فى لحم وفى عصب

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر فى عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها . وجهاد عدوها . واستصلاح أهلها . وعمارة بلادها

أمره بتقوى الله . وايثار طاعته واتباع ماأمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد الا باتباعها ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها . وان ينصر

الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره واعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر نفسه عندالشهوات ويزعها (١) عن الجمحات فان النفس أمارة بالسوء الا مارحم الله

ثم اعلم يامالك انى قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك وشح (٢) بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضاريا تغتنم اكلهم فانهم صنفان : اما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ، وليؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالى الامر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك وقد استكفاك (٣) أمرهم وابتلاك بهم

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فانه لايدى (٤) لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن الى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن انى مؤمر آمر فأطاع فان ذلك ادغال (٥) فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير

واذا أحدث لك ماأنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر الى عظم ملك

---

(١) يكفها عن مطامعها

(٢) شح بنفسك أى ابخل بها عن الوقوع فى غير الحل

(٣) طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم

(٤) لايدى لك بنقمته أى ليس لك ان تدفع نقمته [illegible]
[illegible] لى بأمر كذا يدان أى طاقة

(٥) الادغال ادخال الفساد

الله فوقك وقدرته منك على مالا تقدر عليه من نفسك فان ذلك يطامن اليك من طماحك (١) ويكف عنك من غربك ويفي ء اليك بما عزب عنك من عقلك

اياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم . ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء ادعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم ، فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد

وليكن أحب الامور اليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فان سخط العامة يجحف (٢) برضا الخاصة ، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مئونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وأكره للانصاف واسأل بالالحاف (٣) واقل شكرا عند الاعطاء وابطأ عذرا عند المنع واضعف صبرا عند ملمات الدهر من اهل الخاصة . وانما عماد الدين وجماع المسلمين (٤) والعدة للاعداء العامة من الامة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم

وليكن ابعد رعيتك منك واشنأهم عندك اطلبهم لمعائب الناس فان فى الناس عيوبا الوالى احق من سترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ماغاب عنك . فاستر العورة مااستطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك

... [illegible] الخاصة فلا ينفع الذى معه اما لو سخط الخاصة ورضى العامة فلا أثر لسخط الخاصة [illegible]

(٣) الالحاف [illegible]

(٤) جماع الشيء بالكسر [illegible]

اطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر (١) وتغاب عن كل مالا يصح لك ولا تعجلن الى تصديق ساع فأن الساعي غاش، وان تشبه بالناصحين، ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانا يضعفك من الأمور، ولا حريصا يزين لك الشره بالجوز. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة (٢) فانهم أعوان الأئمة واخوان الظلمة وأنت واجد منهم خيرا لخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه أولئك أخف عليك مئونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً. وأقل لغيرك إلفاً. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من هواك حيث وقع.

والصق بأهل الورع والصدق ثم ردهم على ان لا يطروك ولا يبجحوك (٣) بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزه

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فان فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان وتدريباً لأهل الاساءه على الاساءة. وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه

واعلم أنه ليس شيء بأدعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه اياهم على ما ليس قبلهم (٤) فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا وان أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وان أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامه واجتمعت بها الالفه

---

(١) الوتر بالكسر العداوة والاوتار العداوات (٢) بطانة الرجل بالكسر [illegible]
فى مدحك ولا يبجحوك أى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك لم تكن فعلته [illegible]

وصلحت عليها الرعية ، ولاتحدثن سنة تضر بشيء من ماضى تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت بها

وأكثر مدارسة العلماء ومنافسة الحكماء فى تثبيت ماصلح عايه أمر بلادك واقامة مااستقام به الناس قبلك

واعلم ان الرعية طبقات لايصلح بعضها الا ببعض ولاغنى ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسالمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة وكلا قد سمى الله سهمه ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً

فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الامن وليس تقوم الا بهم . ثم لاقوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثم لاقوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد (١) ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها . ولاقوام لهم جميعا الا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم مالايبلغه رفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر مايصلحه ، وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك الا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل

فول جندك أنصحهم فى نفسك لله ورسوله ولامامك . وانقاهم جيباً ، وأفضلهم حلما ممن يبطىء عن الغضب ، ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء ، وممن لايثيره العنف ولايقعد به الضعف

---

(١) وفى نسخة المعاهد

ثم الصق بذوى الاحساب وأهل البيوتات الصالحة السوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ، فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمورهم مايتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن (١) فى نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعهدتهم به وان قل فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به ، وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه

وليكن آثر رءوس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل (٢) عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو . فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك . وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودة الرعية وانه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم . فان كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل ان شاء الله ، ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء الى أن تعظم أكثر من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرىء الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما

واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الامور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » . فالرد الى الله الاخذ بمحكم كتابه . والرد الى الرسول الاخذ بسنته الجامعة غير المفرقة

ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر (٣) من الفىء الى الحق اذا عرفه

---

(١) تفاقم الأمر عظم

(٢) أفضل عليه وعصل تعدى

(٣) حصر كفرح ضاق صدره أى لا يضيق صدره من الرجوع الى الحق

ولا تشرف(١) نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون اقصاه . أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على كشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر فى ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا

ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة فانهما جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام المتقدمة فانهم أكرم أخلاقا وأصح أعراضا وأقل فى المطامع اشراقاً وأبلغ فى عواقب الامور نظراً . ثم اسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك فى السر لامورهم حدوة (٢) لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية وتحفظ من الاعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق او أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن

---

(١) الاشراف على الشيء الاطلاع عليه من فوق (٢) حدوة اى قدوة يار و يا

يصلح بهأمرهم ولا يثقلن (١) عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه يذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك (٢) لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربما حدث من الامور ماذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه لطيبة أنفسهم به فان العمران محتمل ما حملته ، وانما يؤتى خراب الارض من أعواز أهلها . وانما يعوز أهلها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر

ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك واسرارك بأجمعهم لوجود صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عمالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الامور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لاحسنهم كان فى العامة أثرا واعرفهم بالأمانة وجها فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره . واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها . ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات واوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك . وحيث لا يلتئم [illegible]

(١) ثقل المضروب او زول آنه وادعاء [illegible] اعمرها العرق (٢) اجمامك [illegible]

يحترثون عليها فانهم سلم لاتخاف بائقته (١) وصلح لاتخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفى حواشى بلادك . واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحاً قبيحاً واحتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحا بموازين عدل وأسعار لاتجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه . فنكل به وعاقب فى غير اسراف

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى (٢) فان فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً . واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى (٣) الاسلام فى كل بلد . فان للأقصى منهم مثل الذى للأدنى . وكل قد استرعيت حقه . فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييعك التافه (٤) لأحكامك بالنظر فى الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون . وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه . فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر الى الله فى تأدية حقه اليه ، وتعهد أهل اليتم ، وذوى الرقة فى السن ممن لاحيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل . والحق كله ثقيل . وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم

واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع . فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعى . ونح عنهم الضيق والأنفة ،

---

(١) البائقة الداهية (٢) الزمنى بفتح أوله جمع زمين وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاى أى العاهة يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب (٣) جمع صافية وهى أرض الغنيمة (٤) التافه القليل

يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته . واعط ما أعطيت هنيئا ، وامنع فى اجمال واعذار .

ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها . منها اجابة عمالك بما يعيي عنه كتابك . ومنها اصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك . وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم مافيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام . وان كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية

وليكن فى خاصة ماتخلص به لله دينك اقامة فرائضه التى هى له خاصة فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ، ووف ماتقربت به الى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولامنقوص بالغا من بدنك مابلغ ، واذاقمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولامضيعا . فان فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهنى الى اليمن كيف أصلى بهم ؟ فقال (صل كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما)

وأما بعد فلا تطيلن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم مااحتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالى بشر لايعرف ماتوارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب . وانما أنت أحد رجلين . إما امرؤ سخت نفسك فى البذل فى الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أوفعل كريم تسديه أومبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك اذا أيسوا من بذلك . مع ان أكثر حاجات الناس اليك مما لامؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة . أوطلب انصاف فى معاملة

ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف فى معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك (١) قطيعة ولا يطمعن منك فى اعتقاد (٢) عقدة تضر بمن يليها من

---

(١) الحامة كالطامة : الخاصة والقرابة (٢) الاعتقاد : الامتلاك

الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ (٣) ذلك لهم دونك . وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة ذلك محمودة. وان ظنت الرعية بك حيفا فاصحر (١) لهم عذرك . واعدل عنك ظنونهم بأصحارك ، فان فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك واعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق

ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى ، فان فى الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك . وأمنا لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل . فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة . فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين . لما استوبلوا من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك . ولا تختلن عدوك فانه لا يجترىء على الله الا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته . وحريما يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره . فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق ، فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك

اياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فانه ليس شىء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها . والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين

(١) [illegible]

سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ، ولاعذر لك عند الله ولاعندى فى قتل العمد لان فيه قود البدن وان ابتليت بخطأ وافرط عليك سوطك أو سيفك أويدك بعقوبة ، فان فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى الى أولياء المقتول حقهم

واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فان ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق مايكون من احسان المحسنين

واياك والمن على رعيتك باحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فان المن يبطل الاحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »

واياك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، والتسقط فيها عند امكانها . أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت . فضع كل أمر موضعه . وأوقع كل أمر موقعه ، واياك والاستئثار بما الناس فيه اسوة والتغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون فانه مأخوذ منك لغيرك ، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم

أملك حمية أنفك وسورة حدك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك . واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد الى ربك

والواجب عليك أن تتذكر مامضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو [illegible] فاضلة أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها . وتجتهد لنفسك فى اتباع ماعهدت اليك فى [illegible] هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك . لكيلا تكون لك علة عند [illegible] نفسك الى هواها

وانا نسأل الله بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على اعطاء [illegible] وإياك لما فيه رضاه من الاقامة على العذر الواضح [illegible]

الثناء فى العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة انا اليه راغبون ، والسلام على رسول الله صلى عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا والسلام .

فصل

﴿ فى خلافة سيدنا الحسن رضى الله عنه ﴾

لابد لنا من كلمة على خلافة سيدنا الحسن يتصل بها الكلام ويعلم منها كيف استقام الامر لسيدنا معاوية ، فقد تركنا أغلب الناس فوضى بعد قتل الامام فى العقل والشريعة معاً

كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ؛ ثم بينما هو يتجهز للسير قتل فبايع الناس وهذا الجيش ولده الحسن ، وبلغه أن معاوية سائر اليه فى أهل الشام فتجهز هو أيضا بهذا الجيش الموثق بالايمان والعهود الى لقاء معاوية . فلما نزل الحسن المدائن حدث فى جيشه من الشقاق والنفاق ما دعاه لتأخير ما عزم عليه . رأى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو واقع بينهم دائماً من النزاع والتطلع الى ما ليس لهم (حتى نازعوا الحسن فى بساط كان يجلس عليه)

رأى أن بيعته كبيعة أبيه ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق فراسل معاوية بن أبى سفيان يبذل له الصلح واشترط عليه شروطا وفاءً له . ان انت أعطيتنى هذا فأنا سميع مطيع . وكان معاويه قبل وصول كتاب الحسن اليه ختم صحيفة فى أسفلها وكتب للحسن يقول له : اشترط فى هذه الصحيفة ما شئت فاشترط ، وأهم شروطه تأمين جيشه وشيعة على كلهم فقبلها معاوية وقدم العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وصدق رسول الله فى قوله عن الحسن (ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين)

ثم دور الخلافة بالخلفاء الراشدين بتسليم سيدنا الحسن الأمر وانتهى دور الفتن والشقاق الذى ابتدأ من قيام الثوار على سيد نا عثمان بن عفان ونهايته قتل الامام على رضى الله عنهما .

فتن دامت عشر سنين لو كانت فى أمة أخرى لهدمتها وقوضتها ، ولكن الله نظر الى دينه القويم بعين عنايته فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ثم انقسم المسلمون على أنفسهم وأصبحوا فرقا ، فنهم الشيعة ، ومنهم الغلاة والروافض والخوارج ، وغيرهم من أهل الملل والنحل يقفون فى وجه كل اصلاح ويشقون عصا كل طاعة لحد الآن كما سيأتى تفصيله

ألا مخبر يخبرنى لو لم يقدر الله هذه الفتن الى أى ركن من أركان الدنيا كان يصل الاسلام ، والى أى درجة كانت ترفع كلمته . والى أى عدد كانت تنتهى شيعته ، والى أى شرف كانت تصل رفعته ! . . أظنه كان يستأمن بقوته أعظم قوى الكون ويصبح كل شىء دونه منحطا ومتضائلا خاضعا ومستكينا اليه

لو نظر الناظر لما وجد لهذا الشقاق الذى حصل الا تطاول الأيدى لقتل سيدنا عثمان ونقض بيعة له فى أعناقهم مع ان الخروج عن طاعة الامام لم يجعل النبى صلى الله عليه وسلم له سببا الا الكفر البواح الظاهر الصريح الذى لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم . وكأن مصيبته هذه لم تكف حتى أعقبها الله باقتراق الأمة فى داخليتها فكان لكل جماعة رأى وليس هذا بالأمر الهين . وكيف يكون هينا وقد أدى للقتال والخروج على الامام وعمل السيف فى رقاب المسلمين ما عمل ؟ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

ثم دالت الدولة لبنى أمية وتوالت فتوحاتها برا وبحرا وانتظم الشمل بعد شتاته وجبر الوهن بعد ثلمه ، واشرأبت أعناق أرباب الدولة إلى اعزاز جانبهم وادلال محاربهم واظهار دينهم ، وقد نما فيهم احساس المحاماة على الحوزة فاتجهت جيوش الدولة وأساطيلها الى الفتح فلم تمض الأيام ولم تنصرم الليالى حتى فتحت الجزر فى البحر الأبيض المتوسط والمدن والحصون فى قارة آسيا . وأصبح كهف الأمة مكينا يكلؤ الوادعين فيه . ثم ما زال أرباب الدولة قائمين [illegible]

السديد والعزم الشديد حتى أخذت الجزية من ملك بالقسطنطينية بعد الحصر والتضييق والعذاب الأليم ، واستدامت لها الهداية الى أن أنسى الله سبحانه وتعالى بعض القوم أدب الدين وحدود المحافظة على المواثيق والعهود ، ونشزت طوائف منهم زائغة عن السداد ومتنكبة عن الصواب والرشاد ، فأدت حالتهم إلى اضمحلال بعض الأطراف من ملكهم ، فخرجت عليهم منها غارات وفتن كانت مقدمة لانتقال الدولة من بنى أمية الى بنى عباس كما سيرد عليك ببعض التفصيل بعد هذا فتدرك منه ما يؤدى الى الزيادة والبركة وما يورث الفشل والاختلال « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

ان الصدور لاتزال تكمن مافيها . ولذلك فان شيعة على رضى الله تعالى عنه لاتزال ترى هذا الأمر فى أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وقد صارت لهم مذاهب ونحل يعجز القلم عن استقصائها ، والخوارج لاتزال ترى التحكيم ضلالة ولا ترى البيعة الا شورى ولا تنتخب الا رجلا على مذهبهم ومعتقدهم وتفرقوا شيعا كل له مذهب يتبعه (ولو بغير امام) وجماعة منهم يقولون : ان معاوية هو الذى أحال الخلافة ملكا (وأنى لمعاوية ذلك) وانما الذى أحالها ملكا هى العوامل الطبيعية التى اذا عرضت للأمة تضطرها لطلب الانفراد بالمجد والاستئثار به . وقد وقع هذا بالفعل لبنى أمية ولم يكن لمعاوية أن يدفع تأثيره عن نفسه وقومه ، لانه أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته الأمة فاستماتت دونه ، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالأمر لوقع فى افتراق الكلمة ولم يكن للحسن رضى الله عنه ذلك بل كان القوم فى نهاية الشقاق . يدل على ذلك انه لما تراسل مع سيدنا معاوية فى أمر تسليم الخلافة خطب الناس : فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم . وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع . وكنتم فى مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم . الا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره وأما الباقى فخاذل وأما الباقى

ثائر . ألا وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة، فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبى السيوف ، وان أردتم الحياة قبلناه وأخذناه بالرضا فناداه الناس من كل صوب وناحية « البقية البقية وامض الصلح »

فأين هذه العصبية من عصبيه بنى أمية ومثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى عمله حجة وفعله قدوة يخشاها . كان إذا رأى القاسم بن محمد بن أبى بكر يقول لو كان لى من الأمر شيء لوليته الخلافة ، ولو أراد أن يعهد اليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لئلا تقع الفرقة ، ومثل هذا هو الذى وقع للمأمون منذ عهده للرضا ومن هذا أيضاً الذى نراه فى اهالى الدول المتمدنة الذين يحرصون على تقاليدهم ، فهم فى عصبية تامة يخيفون بها الحكومة ويغرسون فى قلوب أربابها بذور التقية والحذر فلا يتأتى لحكوماتهم ان تجلب لبلادها من البضائع الا ماليس له وجود عندهم فضلا عن أنها تستخدم الغير فى عملها . على أن الملك انما ذم منه الشارع التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات ، ولم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح . واذا كان الملك مخلصاً يحمل الناس على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن مذموما والملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية . وخلافة سيدنا معاوية لم تكن كذلك ، بل من رأى كثير من المؤرخين الذين لم يصح عندهم حديث (الخلافة بعدى) أن تلحق دولته بدولة الخلفاء الراشدين وأخباره بأخبارهم ، فهو تاليهم فى الدين والفضل والفتح العظيم برا وبحرا ومن بعده من خلفاء بنى مروان وبنى العباس الذين فتحوا الفتوحات وأعلوا كلمة الله فى الأرض وان شق ذلك على جماعة فى هذه الأيام شغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل وتضليل وجلسوا مجلس الحكم فى هذه القضيه من قبل أن يتحروا أوثق مصادرها ، والأيام تسوق لهم كل يوم حديثا عن سياسة دنياهم وقد صرف الله قلوبهم عن النظر فيها وأولى .. أن يتناصحوا فى خيرها وشرها . ... الناس أفذاذا لا يعلم أحدهم ... يكون من عمل أخيه

اللهم ألف كلمة المسلمين ، ولمشعثها ، ووفقها لما تحبه وترضاه بمنك وكرمك انك على كل شيء قدير

سيدنا عمرو بن العاص

رضى الله عنه

هو الفاتح لأعظم ركن من أركان الخلافة الاسلامية . البلد الذى هو واسطة عقدها ، أموية . وعباسية ، وتركية ، البلد الذى لم يتمصر قبله مصر ، ولم يذكر قبل أهله حى . البلد الذى كانت أعمال أهله ولاتزال

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

نقدمه على غيره لعلاقة السلطان ، الذى بينه وبين هذا البلد وأهله ، لأنه أول فاتح اسلامى تولى فتحه سيفه وحكمه عدله . ولعلاقة الدين ، لأنه أول من شرح الله صدور أهله اليه على يده وأطلع فى صدورهم نبراسه بواسطته وأول مسجد خشعت فيه الأصوات للرحمن وسجدت فيه الجباه للديان مسجده الذى أسس فى مصر مذ فتحها ووقف على اقامة قبلته (أى على تحريرها) ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من أجلهم

هو سيدنا عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد (بالتصغير) ابن سهم بن عمرو بن هصيص (بالضم) بن كعب بن لؤى القرشى السهمى

اختلف الناس فى وقت اسلامه فقائل قبل الفتح . وقائل بين الحديبية وخيبر وقائل بأرض الحبشة . وعاش تسعين سنة . وكان يذكر ليلة ولد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان أدعج أبلج قصير القامة عليه مهابة الامارة وسيماؤها . أخرج ابن أبى خيثمة من طريق الليث قال : نظر عمر بن الخطاب الى عمرو (رضى الله عنهما) يمشى فقال : ما ينبغى لأبى عبد الله ان يمشى على الارض الا أميرا

وكان لسانا بادى الحجة سديد الرأى ثبت السبب (وقد سددها) ويمل

بالروية حده (وقد فله) . قائل لم يقل بغير تفكير ، ولم يعمل بغير تدبير . قال ابراهيم بن مهاجر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآنا ، ولا أكرم خلقاً ، ولا أشبه سرا بعلانية منه

بلغ مقدار لحنة بحجته ودهائه فيما يريد منه أن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان اذا رأى الرجل يتلجلج فى كلامه يقول : أشهد ان خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد (يعني خالق الاضداد)

وذكر الزبير بن بكار أن قريشا بعثت لعمرو تناظره بعد أن أسلم فقال لرسولها : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك نحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال نحن أهدى . قال فنحن أوسع عيشا أم هم ؟ قال هم . قال فما ينفعنا فضلنا عليهم ان لم يكن لنا فضل الا فى الدنيا وهم أعظم منا فيها إصرا فى كل شيء ، وقد وقع فى نفسي ان الذى يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزى المحسن باحسانه والمسيء باساءته حق ، ولا خير فى التمادى على الباطل

وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرفع طرفه اليه . وكان للمعضلات حلالا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته ، وولاه غزاة ذات السلاسل ، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة الجراح رضى الله عنهم ، وكان أميرهم وكانوا يصلون خلفه

وبعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى ، فلما أتاه قال له : انى أريد أن أبعثك على جيشى فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة فقال : يارسول الله ماأسلمت من أجل المال بل اسلمت رغبة فى الاسلام فقال ياعمرو : نعم المال الصالح للمرء الصالح

واتى النبى صلى الله عليه وسلم على تناته إذ فزع أهل المدينة فزعاً فتفرقوا فنظر عمرو بن العاص الى سالم مولى أبى حذيفة فى المسجد فاذا عليه سيف [illegible] مثله ، فخطب النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الا تكون فزعكم الى [illegible] ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان

ذاق لذة الحاضرة وعرف حال استيطان الريف و [illegible] حلاوة

البدوماز جفاء الاعراب ، فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادى الى القرى وفشا التأدب لم يعجزه استكمال شىء دون استعماله مع أهله على الوجه الذى يحسن مسمعا ويلطف من القلب موقعا

نظر الى دولة الرم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور وسبر تركيبها بمسبار الحكمة مع شده احتفائهم وقتها بسياسة الخفاء فى مجامع رجال دولتهم المعروفة عند جماعة المؤرخين (بسوسيتيه سكريت) ، فتبدى له من أمر الدولة الفراق فى فراقها ، وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن وتخضيد شوكة هذه الدولة عن مصر

فلما كانت سنة ثمان عشرة وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الجابية) قام اليه وخلا به وقال له فيما قال ائذن لى أن اسير الى مصر وحرضه عليها وقال : انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونالهم ، وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل به من تعظيم أمرها وتنبيه خاطره الشريف الى مزارعها ومنافعها ومحاصيل أرضها وبرها وخيرها وفيضان نيلها وحال أهلها حتى ركن لذلك ، وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل وقال له : سر وأنا مستخير الله فى مسيرك فسار وافتتحها (وفى كونها فتحت صلحا أو عنوة حلاف) ولم يخنه الرأى فى شىء مما قال ، ولم تعرف له كذبة فيماروى كأنما نشأ الرجل بين أهل هدا المصرورى فيه

كان نظره فى ذلك على الغيب (والبلاد فى عالم العماء) والخلفاء أثقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة (والكرة الأرضية أبسط من كف) فكم قدروا قوة أخصامهم وأخطؤوا ؟ وكم وطئوا بلادهم فضلوا ؟ حتى دفعوا فى حروب انتهكتهم وطوها فى أول أمرها لعباً ولهواً

ثم وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصفاً يقصر عنه المخالط والعشير ، فمنه أنه قال له عنها (بينما هى لجة بيضاء اذا هى رر حدة خضراء نيلها عجب ، وترابها دهب ، وامراؤها حلب ، وهى لمن غالب)

كيف يرى المصرى الآن . هل قدر بعد ثلاثة عشر قرنا ان يغلتها من وصف عمرو بن العاص ؟ أم هى هى فهمها عمرو ليعلمها وعلمها ليحكم عليها ؟ وكيف يرى الناظر مكان العظمة فى مقال هذا البدوى ومقدار العظة والاعتبار فيه مع أنه لم يتحكك بعلوم أصول الكلام ، ولم يتحنك بفلسفة الحكماء ، ولم يشهد عليه بشهادات التدريس ، ولم يملل عليه الانور بصيرته التى هى نتيجة حسن المنبت وطيب المحرس وصيغة الأدب الدينى الذى هو فردوس النفوس تنقد بواسطة الحقائق . ويحكم عليها حكماً صحيحا تؤيده الأيام ويحققه المستقبل

وكان مع هذه الدنيا المقبلة والسعادة الخادمة والسلطنة القاهرة النافذة وقوله : وهو على المنبر (لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إن شئت قتلت وان شئت خمست وإن شئت بعت) . أسبق الناس لحق، وأبعد الناس عن باطل : فلم يعهد عليه أثناء ولايته عليها نقضه لعهد ولا خفره لذمة ولا هتكه لعرض ولا نظره لما فى يد الناس من الأموال والثمرات والعروص . ولم يستأثر لنفسه خيرا دون من يعول ويرعى

يستظهر على دلك مى تأنيه وتؤدته فى ارسال ما كان يحمل من مصر الى المدينة من الطعام ونظره فى ذلك لطوق البلاد والعباد ، وكتاب أمير المؤمنين بلى الكتاب يطلب ذلك وهو يحتمل العتب منه ولا يحول عن سبيله . وكما يؤخذ من جبايته لها أقل من جباية غيره . وقول سيدنا عثمان رضى الله عنه له : (ان اللقاح بمصر فد درت ألبانها بعدك ياعمرو فقال له : لانكم أعجفتم أولادها)

ثم أزال عن أهل مصر كثيرا من البدع وأذاقهم حلاوة الدين . وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة . ومن ازالتها من حسنة

وحسبك من مناقبه الاسلامية الغراء رضاؤه بالحق عن نفسه واذعانه له . أخرج ابن عبد الحكم عن أنس قال . أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال . عذت بمعاذ قال : سابقت [illegible] ابن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين . [illegible] عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه [illegible]

أين المصرى خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو فقال : ياأمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه . فقال عمر لعمرو (بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟)

وناهيك بهذه المنقبة الاسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما ، وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستقى منها جميع العالم معانى الحرية ، والمساواة ، والاخاء ، والعدل ، والاحسان

أفلا يأسف المصرى على نفسه اذا قايس بين ترقيها فى ذلك العهد وبين انحطاطها الآن . شتان بين نفس تسافر لوقتها من مصر الى الحجاز لتشكو ضربة من سوط ، وبين أخرى ترى حقها من جميع الوجوه مضاعا وهى مستأنسة بالظلامة لا تحس بالألم فضلا عن أن تهم بالشكاية منه

أفلا ينبغى للمسحح بفضل الأجانب أن يقصر بعد هذا الفضل وأمثاله من مكارم الاخلاق عن الافراط فى الاطراء عليهم ! ؟ أفلا يوجب عليه العدل أن يشرك قومه معهم ويضعهم فى طبقتهم فيذكرهم اذا هو ذكر (الكونت ميرابوه) أو (الجنرال دولافت) أو (وسبير) أو (مارا) وغيرهم من الفرنساويين أو (كروموبل) أو (أوليفه) الانكليزيان أو (واشنطون) أو (فرنكين) الأمريكانيان أو (جوردانولوروبو) أو (جريبالدى) أو (كافور) التليانيين لان سعى هؤلاء فى تحرير أنفسهم ومساواتهم ببعضهم لم يكن بأشرف من المعنى الذى قصده أمراء الاسلام ! ولكن هؤلاء نشئوا بين قوم عرفوا فضلهم فأذاعوه ، وسمعوه فوعوه وفصلنا صيغته أصحابه ولا حول ولا قوة الا بالله

هذا بعض الشىء من سيرة هذا الفاتح ، وبقى شىء لا بد من ذكره والتنويه تذكرة لاخواننا القراء قال ابن حجر فى الاصابه : (ان عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم واخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » وقوله

« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم » وقوله « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » وقوله « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » وقوله « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » وقوله « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » وجميع ذلك مع الأحاديث الشهيرة الكثيرة يقتضى القطع بتعديلهم ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له الى تعديل أحد من الخلق ، على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التى كانوا عليها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده من الهجرة والجهاد ونصرة الاسلام وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة فى الدين وقوة الايمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم وانهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم) . ثم وجدت بين المسلمين طوائف من العجم والفرس ديدنهم التنكر لكل دولة ذاهبة ليحتلبوا خير كل دولة مقبلة أولئك أداهم هذا الضرب من النفاق الى الكذب والبهتان فى حق خيار من سلف وخلقوا لهم صغائر وكبائر . وهذا القائح الحايل ممن أصيب ببهتان كبير من هؤلاء وأدى فجور الكاذب عليه ان يخلق له أعمالا ويختلق عليه أمورا ليمحى سيئاته المكذوبة حسناته هذه . وهيهات وقد أخذ الناس ببهرج هذا القول وزور الكلام المصطنع واغفلوا هذه المكارم، وما علموا ان موضع الرجل من الملة والأمة هو الموقع الذى تخطه له هذه المحاسن وتوجبه له هذه المناقب لا ما ترميه به الأعداء . ولم يدركوا أن الأمويين لم يشتموا الا لارضاء العباسيين وان الزارى عليهم لم ينظر فى عمله الى شيء من خدمة الحق أو اعلاء كلمة الدين وان الكل ما بعد ذلك مقلدون

سيدنا معاوية رضى الله عنه

هو أبوعبدالرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموى

كان أبوه أبو سفيان أحد أشياخ مكة أسلم بعد الحديبية على ماحكاه الواقدى وقال غيره بل يومها وكتم اسلامه عن أبيه وأمه حتى أظهره يوم فتح مكة (وهو مثل الذى وقع للعباس رضى الله عنه إذ أسلم ببدر وكتم اسلامه الى قبيل الفتح)

قال أبو نعيم : (وكان من الكتبة الفصحاء وهو ممن كتب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أمينه على وحى ربه جل وعلا)

وكان من أكابر العرب نسباً وقربا منه صلى الله عليه وسلم حاز شرف الاسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف المصاهرة المستلزمة لمرافقته له صلى الله عليه وسلم فى الجنة وشرف الحلم وشرف العلم وسودد الامارة والخلافة . وكفى بنسبه فخراً قول النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . ميزه بذلك صلى الله عليه وسلم دون غيره زيادة فى اعلان شرفه ومجده

روى عن اجلاء الصحابة كأبى بكر وعمر وأخته أم المؤمنين أم حبيبة ، وروى عنه اجلاؤهم وفقهاؤهم كعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير وغيرهم ، فروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى مائة وثلاثة وستين حديثا

كان عاقلا لبناً عالماً حكيما داهية فى السياسة والكياسة ، وهو الذى قال : (لو كان بينى وبين الناس شعرة ماانقطعت) قالوا وكيف ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال (اذا حدوها أرخيتها وان أرخوها حددتها)

حسن التدبير حكيما فصيحاً بليغا يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة والحلم عنده أغلب كريما باذلا للمال يكرم الوفدين ويحسن القرى ، ويقضى

الحوائج ، اختلفت الناس فى حبه ولم تختلف فى فضله

مخايل فضل نشأت فيه وثبتت ونمت معه حتى صرن شمائل كمال وخلال خير وجلال . أخرج أبو سعيد المداينى قال : نظر أبو سفيان الى ولده معاوية وهو غلام فقال : ان ابنى هذا لعظيم الرأس وانه لخليق أن يسود قومه فقالت أمه : (قومه فقط !! ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة !!)

قال ابن عباس رضى الله عنه : وكان من النقاد « ما رأيت للملك أعلى من معاوية رواه البخارى فى تاريخه وقال : ما رأيت ألبق من أعطاف معاوية بالرئاسة والملك » وقال عبدالله بن عمر ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية بن أبى سفيان . قالوا وأين أنت من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ؟ قال أولئك أفضل منه وهو أسود منهم

ووصفه عبدالملك بن مروان عند مامر بقبره فقال : « انه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم . كان اذا أعطى اغنى واذا حارب أفنى

نعم لقد كان سائس أمم ، ومربى دول ، وراعى ممالك . وكفى بقول سيدنا عمر بن الخطاب لجلسائه يوما : « تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية . » دليلا على انه سباق للعظائم من الأمور

وكان يهون عليه كل شىء اذا انتظم أمر الملك وبدا صلاحه . فابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه اليها أحد : منها الاسطول لحماية الثغور [illegible] البلدان من تطرق الأعداء . والبريد لسرعة وصول الأخبار [illegible] وناهيك بها من نعمة علمت مزاياها الملل الآن [illegible] خدامها تيار الكهرباء وأجنحة البخار وديوان الخاتم — وهو ديوان [illegible] صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور ووصل التوقيع الى ذلك [illegible] أثبتت فيه نسخة وختم عليها بالشمع وختم ذلك الديوان [illegible] اللزوم لمراجعة الحساب —

وفضائله كلها غرر منها ما رواه البخارى أن [illegible] رأيت أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان [illegible]

ومنها مارواه الترمذى وقال انه حديث حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لمعاوية فقال (اللهم اجعله هاديا مهديا) ، ومنها ما أخرجه الحارث ابن أسامة من انه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الأربعة الخلفاء وجماعة آخرين من أصحابه ثم قال ؛ (معاوية بن أبى سفيان أحلم أمتى وأجودها) محاعنه بهذه الدعوة المباركة المقبولة مضائق النفس وثورانها ونزع عنه حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة . ولا أحسن من هاتين الصفتين كما لا أقبح من العضب والبخل وأخرج منله (المنلا) فى سيرته ونقله عنه المحب الطبرى فى رياضه أنه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الخلفاء الأربعة وجماعة من أصحابه ثم قال ٠(ومعاوية ابن أبى سفيان أمينى وصاحب سرى)

ومنها : (انه دخل صلى الله عليه وسلم على زوجه أم حبيبة ورأس معاوية فى حجرها وهى تقبله فقال أتحبينه ؟ فقالت ومالى لا أحب أخى فقال صلى الله عليه وسلم ان الله ورسوله يحبانه)

ومنها ماروواه الحافظ أحمد بن منيع قال (قال النبى صلى الله عليه وسلم (عزيمة من ربى وعهد عهده الى أن لا أتزوج الى أهل بيت ولا أزوج بنتاً من بناتى لاحد الا كانوا رفقائى فى الجنة)

ومنها بسارته بالخلافة فقد روى أحمد بسند حسن (ان معاوية رضى الله عنه أخذا الأداوة (١) لما اشتكى أبو هريرة وسار بها الى النبى صلى الله عليه وسلم فبنما هو يوضىء رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه اليه مره اومرتين وهو يتوضأ فقال يامعاوية إن وليت أمرا فاتق الله واعدل)

ولى قيادة الجنود فى الشام وثغور الروم فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وذلك بعد موت أخيه يزيد الخير الذى كان قائد هذه الجنود فمرض فاستنابه ساله حتى مات فأقره سيدنا عمر بن الخطاب . وناهيك ببصيرته الفاروقية فى الانتقاد والاصطفاء لمثال الشام فى ذلك الوقت الملتهبة فيه قلوب اهل البلاد بنار الحقد على جماعة المسلمين إثر الفتوحات الاسلامية والمصاعب المكتنفة بذلك المقام

(١) الاداوة : المطهرة وهى إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالسطيحة ونحوها وجمعها أداوى (بالرمرمية)

فأقام فيها نحوا من عشرين سنة عاملا لسيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان ابن عفان ثم اضاف اليها مصر ثم تسمى بالخلافة ومكث نحوا من عشرين سنة أخرى خليفة ولم يشك أحد من معاوية رضى الله عنه بل كانت الناس راضية عنه عاملا وهم فى عهد خلافته أرضى

ومن عجائب فراسته أنه قال : ان أهل مكة أخرجوا رسول الله فلا تكون الخلافة فيهم أبدا . وان أهل المدينة قتلوا عثمان فلا تعود الخلافة اليهم أبدا . مثل اذا شئت معرفة فضل سياسته . وشخص ان أردت الوقوف على مقدار مدارك عقله ونبله . الموقع الذى صارت اليه الامة الاسلامية بعد فتح الشام وثغوره ، والمقام الحرج الذى صار فيه قائدها وحاكمها ، وتأمل كيف كان حالها فى نظر أمة الرومان وجمهورية رومة أولا . ثم امبراطوريتها ثانيا . لاعتبارهم اياها أقدس مكان لانها وطن الانبياء ومكان المعجزات . وميدان الاديان . وبعد فتح مصر التى أقل وصف لها ماقاله الاسكندر المقدونى : ان مصر مركز للعالم بأسره اذا انبعثت منها انصاف أقطار فانها تمر بجميع الامصار فيسهل على القابض عليها أن يصل منها الى حيث يريد ويختار . لاأشك فى أنك تدرك مركز الشرق الاسلامى ازاء هذا الحال . ومركز الغرب ازاءه أيضا وتعتقد أنه من أعسر المواقع وأحرجها

أنشأ سيدنا معاوية رضى الله عنه فى سنة ٢٨ — وهو عامل الشام فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه — أسطولا سافر به فى البحر فافتتح جزيرة قبرص وكان فى عمله هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حرام أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن أم حرام (بالفتح) بنت ملحان وكانت خالته ان رسول صلى الله عليه وسلم قال (من القيلولة) فى بيتها فاستيقظ وهو يضحك فسألته فقال (عرض على أناس من خيار أمتى يركبون ثبج البحر الاخضر كالملوك على الاسرة قالت فقلت يارسول الله آدع الله ان يجعلنى منهم قال أنت من الاولين) قال فتزوجها عبادة بن الصامت فاخرجها معه فى جيش البحر [illegible]

دابة فصرعتها . وقال ابن الاثير وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدفنت فيها (١) وكان أمير ذلك الجيش سيدنا معاوية بن أبى سفيان وضرب عليها جزية عظيمة ثم فتح من الجزر إقريطش (كريد) وجزيرة (كوس) وجزيرة (رودوس) وجزيرة (ارواده) قرب القسطنطينية ومن البلاد لحد قيسارية (قيصرية)

انظر لعمله رضى الله عنه فى فتح هذه الجزر تجده ادرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول أوربا فيها الآن وأصبحت تتناطح عليها من أجله ، وان عمله فى ذلك الوقت عمل الحكيم الحليم العاقل الحازم الذى قيل فيه

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها واما بوسها

صان كرسى الملك بالأبهة والعظمة ، وجلب اليه القلوب بحسن المجاملة ، وملكها بجميل المعاملة فهابه العدو وطمع فى كرمه الصديق ، وجيش المسلمين فى ذلك الوقت لم يصل الى مائة ألف مقاتل وجميعه منتشر فى البلاد من الشام الى ارمينيه ومنها الى مصر وغيرها من الجزر القصوى والاراضى التى افتتحت من بلاد العرب الى الصين

كانت الدولة فى عهده بدوية حضرية ، فكان اجتماعها وتعاونها فى حاجاتها بالمقدار الذى لايورث الرفه والدعة والترف البالغة مبالغها فى عهد المعاش والمسكن ، فكانت الأمة مقبلة على الدنيا بالمقدار الضرورى فقط . محافظة على البعد من الانغماس فى الترف وأسباب الشهوات التى لاتوجد دواعيها الا فى نهاية العمران والحضارة اللذين هما نهاية الشر والبعد عن الخير

ثم انفرد له الأمر فحارب الروم بحرا وغزاهم برا وأغرق من سفن قسطنطين الثانى جزءاً عظيما فى خليج (الصيالوق) بسواحل اقليم (ليسيا) من الأناضول فى سفح جبل (فينكس)

---

(١) أم حرام لا أم هانئ كما زعم بعضهم عند ذكر قبر المسجد الذى شيده مولانا السلطان فى قبرص على قبر أم هانئ. قالوا وأم هانئ لم تهاجر من مكة والدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها بعد هرب زوجها هبيرة الى اليمن وبقائه على كفره حتى مات فقالت له انى مصبية وأخاف أن يؤذوك يارسول الله فأبى عليها فقال (خير نساء ركبن الابل صوالح نساء قريش أحناه على ولد وأرعاه على زوج فى ذات يده) ثم لما نشأ يوما عرضت نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الآن فلا فقد أنزل الله قوله تعالى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك، فأم هانئ لم تهاجر مع الرسول فضلا عن الذهاب لقبرص

ثم زاد فى مقدار اسطوله وسيره فى زمن الربيع حتى بلغ به سواحل مرمرا فنزل غرب القسطنطينية وحاصرها ست سنين يؤخر فى كل سنة (فى تشرين الثانى) الموافق (نوفبر) أساطيله الى مينا (سيزنقه) التى كان استولى عليها ثم يعود للحصار زمن الربيع

ثم سير جيشه الكثيف وأمر عليه سيدنا سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معه فتثاقل واعتل فأمسك عنه ، ثم أصاب الناس فى غزاتهم جوع ومرض شديد وسمع عن يزيد يتمثل وهما

اذا جلست على الانماط مرتفعا   فى دير سمعان حول أم كلثوم

فما أبالى بما لاقت جنودهم   بالفرقدونة من حمى ومن نوم

فعلم انه أراد بتثاقله اتمام لذائذه فأقسم ليلحقن بسفيان بن عوف فى أرض الروم ليصيبه ما اصاب الناس وسار وكان فى الجيش سيدنا أبو أيوب الانصارى فاقتتل المسلمون واشتدت الحرب بينهم ، وتوفى أبو أيوب عند القسطنطينية بالقرب من سورها ، وهو ممن شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفين مع علىّ وغيرها من حروبه

وفى تشديده على يزيد فى اللحاق بالجيش مالا يخفى من أنه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يعرف فيه قرابة ولا رحماً ، ولا يصون نفسه ولا أولاده عن الجهاد فى سبيل الله ومقاسمة المسلمين فيما هم فيه من حر وبرد . [illegible] الغزوات برا وبحرا وقواده فيها (بسر بن ارطاه) و (سفيان بن عوف) و (فضالة بن عبيد الانصارى) و (مالك بن عبد الخثعمى) و ([illegible] الجهنى) حتى فتحوا من البلاد فى مده وجيزه مالو أردنا ذكر [illegible] أسفارا ضخمه

احتصوا بالعناية الأهلية لخالفتهم القوه . واحتضنهم السعادة [illegible] عن سنن الاعتدال ولم يغلب الرجل منهم على رأيه غالب ولم [illegible] أدنى الرضا وأدنى السخط ونقوا من أنفسهم فوثقت بهم الأمة . [illegible] فى آرائهم غير مختلفى الاهواء

والى هنا يحق للقلم أن يقف دون وصف غرابة هذا المشهد الذى تفاوتت فيه مراتب الهمة والعزيمة الى أعلى مايمكن من منازلها الرائعة ، يحق له أن يقف دون العجب من هذا الحال الذى فات سعة العلم وتعدى قوة العقل واصالة الحكم وذهب بكثير من الناس الى ماوراء عجب المحسوسات وعلا بهم فوق ماتتخيله الافكار . ألا عارف يخبرنى كيف كان ذلك : مقام الخلافة يحفظ ، ومعظم جزر البحر المتوسط تؤخذ ، وبلاد الى حدود الصين تفتح ، والروم تهدد وتحصر وجيش الدولة لايبلغ مائة ألف نفس على الا كثر منتشر فى الجهات كما ذكرنا وعلى فرض اجتماعه فهو جزء من ثمانين من الثمانية ملايين الذين تحت حكومة هولاندا من مسلمى الجاوه الآن فضلا عن بقية الملايين المنتشرة على وجه الأرض

مابالهم تعددوا بعد توحدهم ، وتفرقوا بعد تجمعهم ، أين التناصح بالحق والتواصى بالصدق والاعتصام بالصبر ؟ أين الحق الذى فرض على كل مسلم القيام به لدينه ونفسه وأهله . وبلده ووطنه ؟ اللهم اما أن أولئك كانوا ارتقوا عن أفق الانسانية الى عالم سماوى . أو تكون هذه الملايين انحطت عن أفقها الانسانى الى افق العجماوات

إذا كان لابد من مذكر بالخير ومشير بالرأى فلنحقق لمن هو مطلوب منهم الاصلاح وموكول اليهم أمر الأمه وهم المسئولون عن كل صغيره وكبيرة تلامسها بين يدى الخالق والمخلوق ، ان البدع والتعاليم الفاسدة التى فرطوا فى منعها جعلت المسلمين شيعا واذاق بعضهم بأس بعض حتى صار الكل غرضا لسهام مطالم الاعداء . ولا تزال الامة تزداد تفريقا حتى تزعزعت عقائدها ، وفسدت آدابها ، وتجرأت الناس على استباحة المحظورات ، واصبح لهـا اقبح الاثر فى العوائد والاخلاق

ان باب هذه الفتن إنما فتح على الامة بانصراف كبرائها عن الجادة المستقيمة وان الله لمطالع على احوالهم عالم بما أضاعوه من امر عباده . ولقد كان لهم سوء الاثر فى تضليل هذه العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، فليتقوا الله فى هذه الامه وليعلموا انها اسرفت على نفسها وان هى افاقت

أسفت كل الاسف على ما فرطت وندمت وان كان الندم لا ينفعها على مافات فربما ينبهها الى ما هو آت

هذا بعض الشيء من هذه السيرة الجليلة سيرة هذا الفاتح وأصحابه ورجال دولته الذين جمعوا أمرهم بعد الشقاق عسانا نتعظ بها فلم شعث الفرقة وقد نبع قوم ينتقصون فعله وينالون منه وهم أقل من أن يعدوا فى مصاف الرجال « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » ، ولكن أهل السنة جميعا على حب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ودفع التأثيم عنهم كالشأن فى المجاهدين، لان الله امتن عليهم بمنة لم يشاركهم فيها أحد وهى حلول نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وامداده لهم بما قطع غيرهم من اللحوق بهم فى باهر فعلهم وكمالهم وعظيم استعدادهم وسعة علومهم وحقيقة شرفهم ، فاللهم ارض عنهم واحشرنا معهم واجزنا بمحبتهم خيرا واهدنا لبعض عملهم هذا آمين يارب العالمين

الوليد بن عبد الملك

رضى الله عنه

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو العباس الأموى بويع له بعهد أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ثانى الخلفاء المروانيين

أى بلاد فتحت ، وأى مساجد عمرت ، وأى آية للحضارة والعمران ظهرت فى عهد هذا الخليفة المجاهد المقدام الفاتح أبى الأيامى وعائل اليتامى وملجأ العجزة والمساكين ، الذى شرح القلوب المحزونة ببره ، وفتح البلاد المستحكمة بسيفه وعدله شبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فعله وفتحه وانتشار الاسلام بفضله حتى قالوا وأيامه كأيامه ؟

كأنما كان فى فعله متحريا مكان الوجدان من القلوب ومقر ... من

العقول . لذلك تجد الذى عمره من المساجد وشيده من مواضع العبادة من انفس مايتقرب به الى الله العامل العابد . وماقتحه من البلاد والممالك من أشرف مايفتخر به الانسان الفاتح القائد . فتراه مثلا يجدد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المشرق ويفتح الاندلس للمسلمين بالمغرب ان ذلك لمن أعظم نتائج الفطنة وثمرة العقل . ولذلك كان عصره من أرقى العصور مدنية وأغزرها فتحاً واتساعا وعمرانا ، واجلها عظمة وابهة لاشتراك الامة فى أعمال الخير وانصرافها فى سبيل المجد والاجتهاد وتوجه سعيها فى التغلب على الغير والذب عن الحوزة .

ولى الخلافة فى أواخر سنة ست وثمانين كما قدمنا فادخلت سنة سبع وثمانين عليه الا وهو مقسم أوقاتها بالفكر والخيال جاعل أيامها وساعاتها ينابيع سعادة ووسائل ارتقاء .

بدأ بتعيين عماله فى البلاد التابعة للخلافة الاسلامية بانتقاء وانتقاد يفوقان حد الوصف ويتعديان موضع التحرى ، وحسبك انتقاء مثل سيدنا عمر بن عبد العزيز أميراً على مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فقد جمع بين المسجد وحمامته وخلى بين الخطيب ومنبره

ثم شرع فى بناء جامع دمشق الذى هو احدى عجائب الدنيا جمع فيه مائة الف ماهر من الصناع وحمل اليه أربعين حملا من الفسيفساء هدية من ملك الروم ، ثم اتت وفوده لمشاهدته فصرعتهم عظمته واستفزتهم ابهته وناهيك بهيبة مكان سلاسل قناديله من اللحين المسبوك . ثم كتب للجهات توسيع المساجد وبنائها . فكتب بادخال حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجده وتوسعته بمائتى ذراع ، وهكذا حدد المسجد الحرام ومسجد قبا ومسجد مصر

ثم والى الفتوح وسير قتيبة بن مسلم الباهلى من أكابر قواده ففتح خوارزم وسمرقند وسردينا

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين فجهز مسلمة أخاه والعباس ابنه لغزو الروم فجمعت حصون الفا فلما التقى العسكران غلبت الروم وفتحت بلاد كثيرة من مملكتها

وفى سنة تسع وثمانين فتحت جزيرتا (منورقة) و (ميورقة) من جزر بحر الروم شرق الاندلس . وفى سنة تسعين فتح عسكر الاسلام (نسف) ومدائن أخرى وحصونا من ازربيجان كثيرة وفتح محمد بن مروان جهة دربند(١) وحصونه ودان له ماوراء باب الابواب (٢) وفتح الحجاج بخارى ووصل محمد ابن القاسم لارض الهند ودخل قتيبة (قشغر) أول مدن الصين وافتتحها بعد حرب عوان لاقى فيها ابن أخت ملك الصين فى ماتى ألف مقاتل

ثم دخلت سنة اثنين وتسعين وكان موسى بن نصير أمير المغرب وعامله على افريقية وكان استنزل يوليانوس لطاعة المسلمين بعد حروب كثيرة وعرف منه السبيل لفتح الاندلس فارسل خيرة القواد طارق بن زياد الليثى لفتحها فجاز طارق البحر فى (٣٠٠) فارس من العرب واحتشد معهم من البربر نحوا من عشرة آلاف وصيرهما عسكرين ترأس على أحدهما ونزل به جبل الفتح الذى سمى باسمه والآخر رأس عليه طريف بن مالك النخعى فلقيهم رودريك فى نحو من أربعين ألف فارس فهزموه وافتتحوا البلاد وغلبوهم على مابأيديهم مع كثرتهم وقوتهم لانهم مقبلون بقلوبهم متحدون بوجهتهم

فلما بلغ خبر هـذا الانتصار موسى بن نصير استخلف على القيروان ولده عبد الله ونهض فى سنة ثلاث وتسعين فى عسكر عظيم ودخل الاندلس وانته الفتح الى برشلونه فى الشرق وأربونه فى الجوف وصنم قادس فى الغرب

أصبحت الاندلس وهى المملكة المعدوده فى الرتبه السادسه من الممالك الاوروباوية داخـلة تحت حكم مملكة العرب وجناح الاسلام [illegible] وفوق قاره أسيا شرقا

انظر لعزيمة هـذا الفاتح الجليل ومضاعفه الدين واليقين [illegible] أجمع رأيه أن يأتى الى المشرق من ناحية القسطنطينيه و يتجاوز الى [illegible] مابينهما من أمم الفرنجة والاعاجم وغيرهم يعنى انه يخترق مملكة [illegible] شمالها فيدخل فيها ثم يخرج من غرب أرض سويسره أو مملكة [illegible]

---

(١) راجع دائرة المعارف وجغرافية ملطبرون و [illegible] على هذين الموضعين [illegible]

(٢) أو باب الابواب هو [illegible] ذى القرنين عليه السلام

فى مملكة استوريا ثم الى الروملى الى القسطنطينيـة الى الاناضول فدمشق أو ماحوالى ذلك . وكاد يكون ذلك لولا حرص الوليد على جماعة المسلمين وقلقه عليهم وموالاة كتبه لموسى بن نصير بالعودة ولزوم طاعته فقفل راجعا وولى ابنه عبد العزيز عليها وأسكنه قرطبة ، ومن هنا اتصلت العرب بأراضى الفرنجة وتوغلوا فيهـا ثم دخلت سنة ثلاثة وتسعين ففتح فيها مدينة أرديبل والكرخ والبيضاء وخوارزم وفتح فى سنة أربع وتسعين كابل وفرغانه والشاش وفتحت أقاصى جهة الباب ومدينة طوس فى سنة خمسة وتسعين

ثم دخلت سنة ست وتسعين التى أراد الله أن يتقلص ظل هـذا الخليفة العادل عن الدولة فيها ولا معقب لحكمه ولا رب سواه ، فقضى رحمه الله بدير مران وحمل على أعناق الرجال ودفن بدمشق وتولى دفنه سيدنا عمر بن عبد العزيز فودع الدنيا مصالحاً لخـير أهلها . وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر استقر فيها نصاب الدولة فى مقر عزه من السلطان والقدرة وكمال الفضيلة ، ولولا أن عاجله الفناء لاقتطع من الممالك الاوروباوية ممالك عظيمة وشيد لخلافته ومهد لعصاته ماهو أحل وأفخم مما شاده وبناه ، وقد رزقه الله حظا فى نفسه وذريته وأهل بيته فولد له من الذكران أربعة عشر ومنهم ولده عمر فحل بنى مروان الذى كان يركب فى ستين من صلبه

اتسعت ممالك الاسلام فى دولته اتساعا لم يعهد له مثيل وجبى من الاموال شيئا كثيرا . وكانت الدوله فى عهده فى غاية الثروة وكان فى بيت ماله ما يكفى الحاجات وذوى الحاجات مدة عشر سنة وحث الناس على الابنية والعمار وبناء الضياع واصلح الله به وبهم الارض فاحالوا القفار حواضر وتهيأت الامة واستعدت لقبول كل خير . وكان مع اتساع هذا الملك وزيادة عمرانه يقظا فى أمر دولته لاتفوته الذرة ولاتكاد تفوس أعدائه تحدث سرها بمخالفته ، وكانت له عيون تطلعه باخبار الناس منبثة فى كافة أرجاء ممالكه ليقفوا له على متجددات الاحوال من ذلك ما يحكى ان الهيصم بن جابر أحد الخوارج عليه اختفى وهرب الى المدينة لما أحس بشدة التضييق عليه والطلب له ، ثم أطال شعره واختضب وغير

من شكله وهيئته ودخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ثم بلغ الوليد أن امره هذا قد أعيا الحجاج فنقب عليه مرة فعلم ان الرجل بالمدينة على الهيئة التى ذكرناها ، فكتب الى عثمان بن حيان بالمدينة ينبئه بأن الرجل عنده ويصف له من أمره وحال ماهو عليه ، فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس فنظر اليه رجل كان بجانبه وقال له : ماأنا بمخليك وقبض عليه وأتى به عثمان بن حيان وأقر أنه الهيصم

ومن فضائله انه كان يختم القرآن فى ثلاث ، وكان يبر حملته ويقضى عنهم ديونهم ، وكان محبا للخير محبوبا عند الناس ساهرا على مافيه سمو مقام الخلافة ، وهو أول من حمل الطعام الى المساجد

ومن غرر أعماله التى سبق بها من جاء قبله وأتعب بها من جاء بعده ، انه حبس المجذومين والعميان والزمنى ، وأجرى لهم الارزاق وبنى لهم البيمارستانات وحشر اليها المرضى ، وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا . وشيد التكايا وجمع فيها المعوزين ، وقال للمحتاجين لاتسألوا

هو أول من لاحظ أمر الصحة بأشرف معانيه فقطع بين أصحاب العلل والاصحاء ، ووصل بينهم وبين النعمة والاحسان فمنع تلك الوجوه المحتاجة من الخروج للطلب فى الأسواق ، وكلف القادر الصحيح بالخدمة والعمل لحقق انصافه بين الرعية بالعدل ، لأن فى ارواء المقعد ظهور القادر الذى وفقه الله للعمل يتميز بعمله منهم ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس . وتناهى فى الاعتناء بأمر الصحة حتى كان من عوائده سؤال الأطباء عن أهوية البلدان ومعبا للامراض ، فلما سمع منهم ان هواء دمشق ينفع المجذومين أسس هناك بيمارستانا للمجذومين لاتزال آثاره باقية خارج المدينة للآن

وهو أول من وضع المنار فى الطرقات وناهيك بها من نعمة تحقق الأمن العام وتستدعى زيادة العمران

وهوأول من وضع علامة الاميال فى الطرقات مابين المدينة و"ساه و . . ها ورقم عليها اعدادا ليعلم المسافر القدر الذى قطعه والباقى عليه ... .

وهو اول من حفر الآبار من الشام للمدينة ومن المدينة لمكة يشرب منها الوارد والمتردد

أفلا ينبغى لنا ان نذكره بالخير اذا رأينا الآن اهتمام الممالك والجمعيات بأمر الصحة العمومية وجمع الاعانات لها وعجزهم على كثرة مواردهم عن القيام بما كان قائماً به الوليد ؟

أفلا ينبغى أن نذكر بالخير اذا رأينا الآن عدد الكيلومترات على جانبي السكة الحديدية وهى العلامات التى كان هو أول من وضعها بالفوائد التى بيناها ولضبط مواقع الوقائع من خير أو شر ؟ نعم ينبغى لنا ذلك لنعرف للمبتكر حقه فى الفضيلة وللمخترع قدره فى الاحسان . وبالجملة فقد كانت الدولة والأمة فى مدته آية فى العمران والحضارة وتشييد مواطن الخير والبر والاحسان فلا تجد بقعة الا وفيها شىء من ذلك

كثرت فى عهده الخيرات ولم يعهد عليه فيها شىء من أبواب الظلامات كتسخير الرعايا بغير حق او اغتصاب شىء من معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ولم يدخل الضرر على احد بانتقاص عمرانه او تخريب جداره لغاية له . ولم يتسلط على اموال الناس بشراء ما بين ايديهم بأبخس الأثمان ولم يجنح الى المكوس وزيادتها والتناهى فيها للحد الذى لا يجيزه دين ولا شرع ولا عقل ولا طبع كما رأينا وسمعنا به . وهذا مصداق ما قاله الموبذان (لبهرام) ملك الفرس من أن الملك لا يتم عزه الا بالشريعة وهى بحبوحة العدل والخوف من الله وهو رأس الحكمة (لأنه لاشىء بعد القيام بطاعة الله والتصرف تحت أمره ونهيه) ثم لاقوام للشريعة الا بالملك ولاعز للملك الا بالرجال ولاقوام للرجال الا بالمال ولاسبيل للمال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الله وجعل الملوك قيمة عليه

هذا حال الدولة وهى فى نشأة الحياة تسرى روح العدل فيها من السلطان الى أهله الى حاميته الى جنده الى أمته الى جميع رعيته بالتشبه والاقتداء ، فتجد الكل سواء فى الملابس والشارات والموائد والأخلاق والأحوال والتماثيل فى الجدران

والمصانع والبيوت ، وهذا معنى قولهم (الناس على دين ملوكهم) لأن الملك غالب والرعية مقتدون لاعتقادهم الكمال فيه . أما حالها وقد صارت الى غير ذلك فالتكاسل والاستعباد حتى تصبح الأمة عالة على غيرها ويقصر الامل فيها ويضعف الاعتمار بيطلان النشاط واختلال القوى وتلاشى المكاسب والمساعى لعجز الناس عن المدافعة عن أنفسهم وعما فى حوزتهم وتنقبض الايدى عن العمل فيصبح طعمة لكل آكل ، ثم يذهب ماللملك من الابهة والجمال وتفشى الناس أخلاق الحقد والحسد . فاذا تم ذلك والعياذ بالله عمت النكبات والمصادرات وضعفت الشوكة الخارجة وأصبح سهم القدرة لا يتعدى الأمة وأصبحت هى معرضة للهلاك والله أعلم

سليمان بن عبد الملك

هو سليمان بن عبد الملك أبو أيوب من خيار خلفاء بنى مروان . ولى الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وتوفى فى سنة تسع وتسعين . فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر (بدابق) بين حلب وعتاب . كان طويلا جميلا فصيحاً لسنا أديبا متورعا عن الدماء مؤثرا للعدل محباً للغزو . روى قليلا عن أبيه وعبد الرحمن بن هبيرة وروى عنه ابنه عبد الواحد والزهرى . كان حسن السيرة يرجع الى دين وصحبة الحق واتباع للقرآن واظهار للشرائع الاسلامية وهو أسخى بنى أمية وى.روا.ن بالمرحوم . المدنار

اسكتب يزيد بن المهلب والفضل بن المهلب وعبد الع.. ..ن ... خ.. ت .ن الحكم وكان خطيبا فمن خطبه الموجزة

(أيها الناس اتخذوا كتاب الله اماما . وارضوا به حكما . واجعلوه لكم قائدا فانه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده)

كان وزيره سيدنا عمر بن عبد العزيز صفوة أهل زمانه فكان ... ... فى كل خير وكلها خير فأصبح جميع ما أسرف فيه الخلفاء ... ...

وأخرج من كان فى سجن العراق ورد المنفيين وأحيا الصلاة لأول وقتها . ثم استخلف عنه سيدنا عمر ففتح أعماله بخير وختمها بخير فسموه مفتاح الخير

لم يقصر فى مدته على قلتها من التوسعة على المسلمين ، بل كانت أيامه ذات فتوح متوالية ، وكان غيوراً شديد الغيرة فامتدت الدولة فى مدته الى آخر بلاد الاندلس واستتب له الأمر فيها وفتحت مدن الصقالبة ، وحصن الحديد وسردا ، وشفا ، وجرجان ، وطبرستان . وناهيك بهما وهما مما أعيا سابور ذا الاكتاف ، وكسرى قباذ ، وكسرى بن هرمز ، بل مما أعيا عمر وعثمان ومن بعدهما من خلفاء الله تعالى رضى الله عنهم

كانت الطريق قبل فتح جرجان مخوفة يتوسطها الأشقياء فيقطعون السابلة ويفسدون فى الأرض ، فكان بهذا الفتح اسال ستر الأمان على كل قاصد لتلك الجهات للانتفاع من خيراتها التى كانت محجوبة بيد هؤلاء الاشقياء

حج بالناس سنه سبع وتسعين ومعه سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ففرض لأهل المدينه أربعة آلاف فرض لقريش خاصة ليس فيهم حليف ولا مولى فدخل جماعة من قريش عليه وقالوا له : انا جعلنا ذلك لموالينا ، ففرض سليمان أربعة آلاف أخرى

ثم بعد قضاء الفريضة على أكمل أوجهها عاد الى مقر خلافته وندب أخاه مسلمة وقطع معه البعوث على أجناد الشام والجزيرة وجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك من أدوات زمانه . وعقد له على الجيش برا وبحرا وخرج معهم بهيئة الخلافة وهيبتها ومعه جماعة من الفقهاء حتى نزل دابق وجاءته الأجناد من كل ناحية فأمر الجيش

رحل (مسلمة) أخوه بالجيش فسلك طريق مرعش وافتتح مدينة الصقالبة كما ذكرنا وتسا حواليها . ثم سار لطلب القسطنطينية حتى نزل عمورية وبطريقها (ليون) بن قسطنطين المرعشى فوادعه مسلمة وأعطاه رهنا وأخذ منه مثله وتعاهدا على المناصحة والمظاهرة على أهل القسطنطينيه وحلف (ليون) أن يكون عوناً له ثم أخذ ينتهز به الحال حتى دخل القسطنطينيه و (تيدوس)

حاكم عليها ، فما زال يلعب بكرة الأروام مرة وبصولجان المسلمين أخرى حتى دس لتيدوس من قتله وتفرد بالملك من غير منازع ، ثم غدر بمسلمة ونقض عهده وأغراه بحرق ذخيرته فى كلام طويل يطلب فى مظانه من كتب التاريخ (١) ولاقت المسلمون من الأذى والشدة مالم يلقه أحد وأكلوا الدواب والجلود وأبلوا فى سبيل الله بلاء حسنا . وكل ذلك سببه سلامة النية وصدق الوعد والبقاء على العهد ولاحول ولاقوة الا بالله

كل خليل كنت خاللته ماترك الله له واضحه
فكلهم أروغ من ثعلب ماأشبه الليلة بالبارحه

هذا وسليمان مقيم بدابق لا يقدر على إمدادهم بشيء من الازواد لكثرة البرد والثلج الذى قطع بينه وبين جيشه العظيم الذى يبلغ نحوا من مائة ألف مقاتل ، وقواده ابنه داود ومسلمة بن عبدالملك أخوه وجماعة من أهل بيته وعمر بن هبيرة

مرض بالحمى فأقسم أن لا يعود الى مقر خلافته حتى يأتيه خبر فتح القسطنطينية أو يموت حيث هو ، فلما اشتد عليه المرض سأل (رجاء بن حيوة) ـ وكان وزير صدق لبنى أمية فى أمر العهد ـ فقال له : (ان مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين من بعده الرجل الصالح) قال : (كيف ترى فى عمر بن عبدالعزيز ؟) فقال : (أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما) فقال : (هو والله على ذلك) وأشار على « رجاء » أن يجعل يزيد بن عبدالملك أخاه ولى العهد بعد سيدنا عمر بن عبدالعزيز فكتب كتابا وختم عليه ودعا الناس الى بيعته مختوما وقال له (أخرج الى الناس فليبايعوا على مافيه) فبايعوا . ثم مات سليمان وفتح الكتاب فاذا فيه العهد لسيدنا عمر بن عبدالعزيز فتغيرت وجوه بنى أمية . ثم لما سمعوا بعده اسم يزيد بن عبدالملك أخيه راجعوا فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة

اللهم لا زراية (٢) على السابق ولا تدريه (٣) للاحق . ولكنها فعله ـ

(١) راجع ان شئت بدة من عيون الحقائق مطبوع فى لندن تجد هذا مفصلا (٢) [illegible] . . عابه ( ) دريته بدرية مدحته

الجميع حتى الولى والوصى ، فلم يعهد فى جاهلية ولا اسلام عهد عهد رعاية للورع والصلاح والاهتمام بأمر المسلمين أجل من هذا

لم يمت سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه عن غير عقب بل عن أربعة عشر ولدا من الذكور : منهم داود قائد جيشه فى حرب القسطنطينية وغيرها ولا عن غير قرابة . فاخوانه كثيرون . ومنهم مسلمة الذى أبلى فى حروبه وفى حصار القسطنطينية وغيرها فى عهده وعهد الوليد أخيه بلاء حسناً . ولكن رأى أن حقوق هؤلاء من جهة لحمة نسبهم به وقرابتهم اليه أقل من حق جماعة المسلمين الذى جعله الله فى عنقه فسلم الخلافة لخير أهل زمنه فخرج من عهدتها طاهر الذيل . وناهيك بكلمات وزيره (رجاء بن حيوه) معه فى هذا الموقف الحرج

يدلنا هذا الحال على أن العلماء فى كل زمن هم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الأمة ، فصلاح حالها بصلاحهم وفساده نفسادهم ، ولقد ابتلى الله المسلمين فى أزمنتهم الأخيرة بعض علماء لا يعرفون من دنياهم شيئاً الا نصب هيا كل الاطراء ورفع تماثيل المدح لكل رئيس من الرؤساء وعظيم من العظماء فضلا عن خليفة من الخلفاء

فسدت أخلاق العامة بالزور والرياء والنفاق والكذب والمحاباة والمصانعة والمداهاة ، بل تزعزع اعتقادهم بسبب ذلك وأخذوا ينتصرون لهوى نفوسهم الخبيثة وأهوائهم الباطلة ، والعلماء لا يصدونهم عن هذا بشرح الحقائق والترجمة عن السجايا الجميلة والأخلاق المرضية

سأل سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه (أبا حازم) وكان زاهدا فقال له : (كيف القدوم على الله تعالى ؟) قال : (أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسرورا ، وأما المسىء فكالعبد الآبق يعود الى مولاه محزونا) قال سليمان : (فما بالنا نكره الموت ؟) قال . (لانكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم النقلة من العمارة للخراب)

ياعوناه من هذه الكلمات ! ! كيف تقال فى وجه خليفة جمعت خلافته بين أوصال المشرق والمغرب وتحت رايته الجيوش الجرارة وآلات الحرب والضرب

وأمره نافذ فى قارتى آسيا ومعظم أوروبا وما بينهما . فان لم يكن هذا الواعظ من خير علماء الآخرة إذ قالها ، وهذا الخليفة من خير خلفاء الدنيا اذا تعظ بها فمن ؟

ومازالت الدول الأوربية المتمدنة توحى للمسلمين بتمدنها حتى اعتقدوا كما برهنتْ لهم أن الدين حائل دون الارتقاء وقيد ثقيل لا يمكن الانسان من الوثوب إلى معالى الأمور ، ثم سلكت بهم سبيل الترقى والسيادة الذى هدتهم اليه وملكتهم مقاليد العز والسعادة التى مكنت يدهم منها . ولم تمض الأيام وتنصرم الليالى حتى انكشف السر وظهر الصبح لذى عينين ورأوا أنفسهم يرسفون فى قيود الذل ، وان تلك الأمم المتمدنة كانت ترمى لغرض آخر تفننت فيه بحسب أطماعها وليس الغرض منه الا ترك هذه الشعوب لآداب دينهم وعوائدهم وتقاليدهم وادخالهم مضايق دون الاستصلاح لها حتى يمسوا ويصبحون مضغة للاكل . وكان كذلك

ألا نظرة صادقة من هذه الأمة المسكينة لما كانت فيه ونظرة لما صارت اليه لتعلم أنها مخدوعة فيما يبهج الناس منظره ويسر القوم رؤياه ، فتنتبه لمصابها وتعلم بعلتها فلا تحيد عن الهدى الصحيح والطريق المستقيم حتى تخرج من درك الشقاء ولا تنتهى الى شر المسير

إنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

سيدنا عمر بن عبد العزيز

رضى الله عنه

ماذا تسع هذه العجالة من وصف هذا الخليفة العالم لو الدين اللين السهل القريب الذى ملأ الأرض عدلا وجاء مصداق (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها

ماذا تسع من وصف من أفرد أكابر المؤلفين المؤلفات فى فضائله وخصائصه . وضرب المثل بعدله وتشاكل بعدله -

ابن الخطاب رضى الله عنه حتى قيل : (عدل العمرين)

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى . وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو التابعى الجليل الذى روى عن أنس بن مالك وعبدالله بن أبى طالب وسعيد بن المسيب والسائب بن زيد ويوسف بن عبدالله وخلائق كثيرين

ولد بحلوان المعروفة (من قرى مصر) سنة احدى وستين وكان يقال له : أشج بنى مروان . ضربته دابة فى جبهته وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : (ان كنت أشج بنى مروان انك لسعيد) قال ذلك لأن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول : (من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الارض عدلا)

ولى الخلافة وبويع له يوم مات ابن عمه سليمان بن عبدالملك سنة تسع وتسعين عن عهد منه اليه (كما قدمنا فى ترجمته) من غير علم منه فظهرت عليه علامات الاستياء من ذلك . قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . (أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم . ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ ، ولست بمبتدع ولكنى متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا . وان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم . ألا لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق)

بدت عليه مخايل الورع والدين والصيانة والزهد والنزاهة من أول حركة بدت منه . كان شديد التنعم والاختيال فى مشيته فخرج عن جميع ما كان فيه من ذلك [illegible] والمأكل والملبس والمتاع حتى النساء ورد ما كان لزوجته وهى بنت عمه عبد الملك بن مروان الى بيت المال . وكان دخله أربعين ألف دينار فرد ذلك كله وخصص [illegible] نفقته ومنه درهمين ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يبدله الواحد وكان [illegible] حتى يجف . ويأكل الغليظ من الطعام ، ورد جميع المظالم حتى [illegible] كان فى [illegible] أعطاه الوليد من غير حق [illegible] التى من [illegible] الآخرة فيمقص

كما ينتفض العصفور فى الماء ويجلس ويبكى وهى تقول . ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين

علم الناس أنه مؤثر دينه على دنياه فآثروا حبه على نفوسهم . أعرض عن ركوب خيل الخلافة والاحتزاء بمركبه الخاص وهجر مكان حكومتها ولازم بيته

وكانت خلافته سنتين ونصفا على الاكثر ازدان دست الخلافة فيهما به

فاذا الدر زان حسن وجوه كان للد حسن وجهك زينا

لم يكن هذا الزهد والتقشف من الجنس الذى رأيته أنا وأنت عبارة عن لزوم الرحل كسر الحائط وهو غريق فى لعابه خارج عن بعض ثيابه جامد الفكر لايتعدى إبصاره موضع قدميه ، فهو الى منزلة البله والعته أقرب كلا ، بل كانت الدنيا عنده فى كفة والآخرة فى كفة يزن من هذه لهذه ويزرع فى دنياه مايجزى بخيره فى آخرته

كان أول مابادر اليه رضى الله عنه أن بعث الى ابن عمه مسلمة بن عبدالملك ابن مروان يأمره هو ومن معه من المسلمين بأرض الروم بترك حصار القسطنطينية والقفول الى منازلهم لما يعلمه من اشتداد الحال عليهم كما تقدم البيان فى (ترجمه سليمان) وبعث لهم بالطعام الكثير والخيل العتاق

ثم وجه حاتم بن النعمان الباهلى للقتال عن أذربيجان وقد أغير عليها فطرد عنها القوم وأزال عنها الخوف وألبسها لباس الأمن

انظر لعلو رأيه وصائب فكره فى عمله وخبرته برجاله . ولى عدى بن أرطاه الفزارى على إمرة البصرة وناهيك به . واستقضى عليها الحسن البصرى رضى الله عنه فاستعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه اياس بن معاوية الذكى المشهور

والالمعى الذى يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

وبعث على إمرة الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب واستقضى عليها عامر الشعبى ، وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبدالله الحكمى وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد . وعلى [illegible] أبا بكر محمداً بن عمرو بن حزم

وقد حج بالناس ، وأرسل الوليد بن هشام المعيصى وعمرو بن قيس الكندى للغزو ، وولى عمر بن هبيرة نيابة الجزيرة ثم أخذ فى فحص الأعمال فناقش اليزيد ابن المهلب الحساب وحبسه لأنه طالبه بما قبله من الأموال التى كتب الى سليمان بن عبدالملك انها حاصلة عنده فقال : انما كتبت بذلك لأرهب الاعداء ولم يكن بينى وبين سليمان شىء فغضب عمر لضياع مال المسلمين ثم أمر بأن يلبس جبة من صوف وينفى الى جزيرة دهلك ـ التى كان ينفى اليها الفساق ـ ثم شفع فيه فبقى فى سجنه ، وعزل الجراح بن عبدالله الحكمى عن إمرة خراسان بعد ستة أشهر أو خمسة ، لانه أخذ الجزية ممن أسلم من الكفار وكان يقول لهم أنتم انما تسلمون فراراً منها (حبذا العدل والفضل)

ثم دخلت سنة واحد ومائة وكانت بدأت الدعوة لبنى العباس فبقى فى مقر الخلافة وحج بالناس أبو بكر محمد بن محمد نائب المدينة واشتغل سيدنا عمر رضى الله عنه بتبريد البريد من والى المدينة والشام

وفى هـــذه السنة مات كثير من الصحابة والتابعين لاتحاد ساعات آجالهم وتقارب أعمارهم ، نذكر منهم الصحابى الجليل سيدنا الليثى الكنانى وهو آخر من رأى النبى صلى الله عليه وسلم ورآه بالاجماع . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يستلم الركن بالمحجنة . وذكر صفته عليه السلام . وهو آخر من مات من الصحابة مطلقا بالاجماع فى جميع الأرض . اجتمع عنده مائة ألف أسير من الروم فساوم دولتهم على ردهم وأخذ « ملاطيه » ومازال حتى اقفعها واشترى هذه المدينة بهؤلاء الاسارى وبناها وأصبحت من المدن المهمة

وفضائل عمر كثيرة أعظم من أن تحصى وتستقصى : فمنها انه أبطل الكلام فى على رضى الله عنه وقرأ على المنبر « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » واستمرت الخطباء على قراءة هذه الآية . ومنها أنه جمع القرآن وهو غلام صغير قال الزبير بن بكار : ان أول ما استبين من حرصه على العلم ورغبته فى الادب أنه طلب من أبيه رحلته الى المدينة وقعد الى مشايخ قريش وتجنب شبابهم فتأدب

بآدبهم واشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه عبد الملك بن مروان فخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة (١)

قال عمر بن ذر : لما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبد الملك قال له مولاه : مالى أراك مغتما : قال لمثل ما أنا فيه فليغتم . ليس أحد من الامة الا أنا أريد أن أوصل اليه حقه غير كاتب الى فيه ولا طالبه منى

ولا عجب فى ذلك . فانه كان يتفكر فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذوى العيال الكثير والمال القليل . وهم فى أقطار الارض واطراف البلاد ويعلم ان الله سائله عنهم

كان لا تأخذه فى الحق لومة لائم . دخلت عنده اشراف بنى أمية يسألون لهم عملا . فقال لهم : اتحبون ان أولى كل رجل منكم جندا ترون بساطى هذا ؟ انى لأعلم انه صائر الى فناء وبلاء وانى اكره ان تدنسوه بارجلكم فكيف أوليكم دينى ؟ اوليكم اعراض المسلمين ؟ هيهات ، فقالوا مالنا قرابة اما لنا حق ؟ قال ما انتم واقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الامر الا سواء . !

كان محبا للعدل والقسط يبغض الجور والعسف . لا يرى عنده شيء افضل من الحق ومن كلامه . (ان كانت الناس لا يصلحها الحق فلا اصلحهم الله) وكان يقول (عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم لا على قدر احسادهم) بلغ الناس ان يقولوا (ان الغنم والأسد والوحوش كانت ترعى مع بعضها فى مرعى واحد فى عهده)

كتب اليه الجراح بن عبد الله (ان اهل خرسان قوم ساءت اخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فان راى امير المؤمنين ان يأذن فى ذلك فعل

---

(١) [illegible] فاطمة [illegible] وجدها خليفه وأبوها خليفه وزوجها خليفه [illegible] عاتكه بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وام [illegible] أبوها خليفه [illegible] معاوية وأخوها خليفه وهو معاوية بن يزيد وزوجها خليفة وهو عبد الملك وحموها خليفه [illegible] وهو يزيد وابن ابنها خليفة وهو الوليد بن [illegible] واولاد زوجها خلفاء وهم [illegible] عبد الملك وكل هؤلاء محارم

ورايه الموفق) فكتب اليه عمر (اما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر به أن اهل خراسان قد شاءت اخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والصوت فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام

كان أشد الناس حرصاً على العمل بسنن من قبله من الأصحاب . قال الزهرى : كتب عمر بن عبد العزيز الى سالم بن عبد الله يكتب له بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات . فكتب اليه بالذى سأل ثم كتب اليه (انك ان عملت بمثل عمر فى زمانه ورجاله فى مثل زمانك ورجالك كنت عند الله خيراً من عمر)

يزعم الأوروبيون ان الشرقيين يعاملون من حكامهم معاملة الأنعام اليهم لا يقومون الا بالسياط ، وانهم هم الذين رفعوا عنهم سوط العذاب وأدنوهم من شرعة العدالة وكشفوا عن عقولهم غمة الوهم . الا ان هذه الدعوى مما تستخزى النفوس بعد أن اجتث الدين الاسلامى كل حذور الجهل ، وأخرج الآخذين به عن كل عقيدة باطلة ودعا الناس إلى أصول الفضائل التى أتى عليها وأمهات المحامد التى أحياها وقواعد العدل التى أسسها وسد ينبوع الفساد وقطع ذرائع كل محرم . فهذا عدل خليفة من خلفاء الاسلام على رأس القرن الثانى من الهجرة كانت أو ، وما فيه فى قطع من الظلمات فى كل شىء فان لم ينفرد المسلمون بسوى السابقية فى العدل لكفاهم فضلا

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال (ماصليت وراء امام قط أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الفتى حين كان على المدينة) . قالوا كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقراءة

وكان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من جمرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو أول من سمى حمامة المسجد) لا يأتى أحدا من الخلفاء وكان يأتى الى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة قال مجاهد : أتيناعمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه قال ميمون بن مهران . كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذه . هو معلم العلماء قال سفيان سعيد الثورى رضى الله عنه : الخلفاء خمسه : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم . وأجمع العلماء قاطبة

على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وقال مالك ابن زياد : يقولون (مالك زاهد مالك زاهد أى زهد عندى ؟ انما الزاهد عمر أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها) ومن عجائبه مايروى أنه وقف على راهب فقال له : عظنى فقال عليك بقول الشاعر :

تجرد من الدنيا فانك انما خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

ودخل يوما على امرأته يسألها ان تقرضه درهما يشترى به عنبا فلم يجد عندها فقالت له : انت أمير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ قال (هذا الحرمان أيسر من معالجة الاغلال غداً فى جهنم)

انظر لحكمته فى سياسته ولتحريه قطع ذرائع الرشوة واستقامة العمال .كان يوسع على العامل فى نفقته فيعطيه فى الشهر بحسب عمله من مائة دينار الى مائتين الى ثلثمائة (هذا مال كثير فاننا اذا اعتبرنا الدينار نصف جنيه انكليزى مثلا كانت الثلثمائة دينار مما تقرب من مرتبات كبار الحكومة المصرية الآن وكانت الحاجات غير الحاجات والضرورات أخف منها فى هذه الاوقات بكثير كما لايخفى على بصير) ويتأول انهم اذا كانوا فى كفاية تأملوا لأشغال المسلمين وكان يقول فى دعائه : (اللهم ان كان عمر ليس بأهل أن ينال رحمتك فرحمتك أهل لأن تنال عمر) وكان يقول : (اللهم أصلح من كان فيه صلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم)

أما موته فقد قيل فيه أقوال كثيرة (وما آفة الاخبار الا رواتها) فمن ذلك انهم قالوا : ان بنى أمية علموا أنه اذا امتدت أيامه احرج الأمر عن ايديهم لانه لايعهد بعهده الا لمن يصلح الأمر فعاجلوه

قيل ان مولاه دس له سما فى طعام أو شراب واحد الف دينار فرض فأخبر انه مسموم ، ثم استدعى مولاه وقال له : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال ألف دينار فقال : هاتها فاحضرها ووضعها فى بيت المال وقال لمولاه : اذهب فلا يراك أحد

قيل له هؤلاء سوك (وكانوا اثنى عشر) ألاتوصى لهم بشىء [illegible]
قال ان ولي الله الذى لاإله الا هو وهو يتولى الصالحين [illegible] حتى

أحد . وهم بين رجلين : اما صالح فالله يتولى الصالحين ، واما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . ثم استدعى بهم فودعهم وقال لهم هذا الكلام ثم قال انصرفوا عصمكم الله واحسن الخلافة عليكم

قالوا انه لما احتضر صرف من حوله فخرجوا وجلس مسلمة بن عمه وفاطمة زوجته على الباب فسمعاه يقول . (أهلا بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا جان) ثم قرأ « وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ثم انخفض الصوت فدخلوا فاذا به قضى رضى الله عنه

هشام بن عبد الملك

هو هشام بن عبد الملك بن مروان ولى الخلافة سنة خمس ومائة لما مات أخوه يزيد بن عبد الملك بعهد منه . كان بالرصافة فجاءته بشرى الخلافة على البريد فركب من ساعته وسار الى دمشق وبويع فيها بالخلافة وكان متنعما . قالوا لم يكن فى بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام . يقال انه خرج حاجا فتحملوا ثيابه على ستمائة جمل

كان محبا للعمران . مستحدا فى أدوات الزينة . متناهيا فى تربية الخيل . متباهيا بها ، وهو الذى أقام الحلبة وجمع فيها أربعة آلاف فرس . قال المسعودى : (وذلك مالم يتفق لاحد من الناس لا جاهلية ولا اسلاما)

ولع بجودة السلاح وعدد الحرب ولامَتها . شغف باصطناع الرجال وتقوية الثغور وهو الذى شاد المعاقل صيانة للبلاد واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغيرها رحمة بالعباد

كان حازما سديد الرأى غزير العقل عالما بالسياسة . قال الهيثم بن عدى والمدائنى وغيرهما ان السواس من بنى أمية ثلاثة : معاوية رضى الله عنه وعبد الملك وهشام

اشتدت فى أيامه الدعوة لبنى العباس وثارت روح العصيان فى الاحزاب المرشحة للخلافة . واستعرت حروب أخرى وقوى الله المسلمين عليها فانتصروا

وغنموا أشياء كثيرة . وفاز عسكر أسد بن عبد الله القسرى فى غزواته ، وقتل خاقان الترك ، ودخل بلاد فرغانة وخوقند بعد التعب والنصب والجهد الجهيد وقتل الكثير ، وغزا عامله أيضا نصر بن سيار بلاد « ماوراء النهر » ففتح وغنم منها خيرا عظيما

فتحت فى أيامه قيصرية الروم بالسيف وغيرها على يد « البطال » الشجاع المشهور ، وغزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وأرمينيه (بلاد صاحب السرير) ورتب عليه الجزية

تولى الخلافة والفتن ببلاد المغرب على قدم وساق منتشرة فى ارجاء البلاد . وكان البربر قتلوا عامله بشر بن صفوان فولى عليها بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ثم رأى أنه ليس برجل زمنه فولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا . فاستعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى

كان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية فتقدم للغزو فى بلاد (الغاله) (١) وانتصر فى غزوات كثيرة رجع منها مصورا غانما وتقدم حتى وصل الى مدينة (بردال) أو (برديل) (٢) بفرنسا ودخل كثير من تلك البلاد فى الاسلام، وعزم على فتح بقيه بلاد (الغاله) فقطع جبال البرانات (٣) وفتح الحصون والمدن وامتدت عساكر الاسلام فى بلاد (إكبانة) و (بورغوبه)

دهم (الغالبين) مادهمهم من هذه الجيوش الجرارة واشتد بهم . حل بالبلاد من الخراب والدمار ، فانتخبوا فارسا منهم يقال له : (كرلوس) من جانبه الملك كان مقداما ذا دهاء وفطنة محبوبا عند أصحابه ، وهو المسمى فى كتب العرب (قارله) وعند الفرنج (شارل ماريل) . جمع الأهالى وأمرهم أن لا يتعرضوا العرب ولا يعارضوهم ولا يخاطروا بأنفسهم وخطب فيهم خطبه لو وجد ـ

---

(١) الغاله العائل الاصلية الفرساويه

(٢) بردال هى بوردو الفرنساوية المعروفة

(٢) البرانات هى جبال فى الشمال الشرقى للاندلس معتمد والآسحد ...

؛ من العرب والمسلمين فى ذلك الوقت أذناً صاغية لكانت بمنا لكل ماخسرته لأمة الاسلامية للآن.

خطب فى قومه بامعناه : الرأى عندى أن لاتعترضوا العرب فانهم كالسيل المنحدر يجرف مايصادره وانهم فى اقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم فأصبح الرجل منهم يغنى عن كثرة العدد . واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع . فأمهلوهم حتى تمتلىء الأيدى من الغنائم ، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا فى الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض فاذا كان ذلك فانكم تتمكنون منهم بأيسر مايكون ،

كأنما كان منطقه موكلا ببلاء ظهور الفتنه التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، واستعان المسلمون على بعضهم ببعض بل على بعضهم بمن يجاورهم من الأعداء

نظر هذا الرجل الحكيم فرأى أن الخصال التى تحيط الامة بالكوارث (كالترف والاسراف والتبذير والانغماس فى النعيم الذى أباد الامم ، والحضارة التى تؤدى الى فقد العادات الشريفة وتعين على الاضطراب وتفريق القوى الجامعة وقطع الصلة وتجديد الخصومات والحسد الذى هو مقام الحدود الحاجزة بين النفوس وبعضها)حائمة بين جيوش العرب وجموع المسلمين فقال اصبروا حتى تتم ويتم له بالحيلة مالم تتم بالحرب والقوة

فلما لم يحترز المسلمون من تدرج خصال السوء بينهم ، وساروا بحسب أهوائهم ، ولم يقتدروا على تقويم المعوج واصلاح الخلل ومداواة العلل والظهور بمظهر الرقى الذى أتوا فيه بالعجب العجاب ، وتمت له أنهم فارقوا أدب الدين فاجأهم هذا المائد بغنه وحاربهم بتفرقهم ، باختلاف كلمتهم ، بسوء رأيهم ، باضاعة حزمهم وحرمة دينهم

جمع شارل جنوده مع ماانضم اليهم من جنود جرمانيا التى باتت مهددة بما وقع لجارتها (فرنسا) وتقابل بجيشه مع العرب بين مدينتى (طور وبواتيه) بعد ... الخشان ، ... اسلك التشرف والعرب وتحاربا سبعة أيام ... الحال

عن هزيمة العرب وقتل عبدالرحمن ، وانتشر خبر هذا الانتصار فى كل أوربا فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب وقطع هذا الانكسار على العرب فتح فرنسا الذى كانت تفكر فيه زمنا طويلا

فعلت أوربا مع هذا القائد خلافا لما كان ينبغى أن يعمل مع أمثاله فان انتصاراته كما قال صاحب (ألف ليلة) : مما يكتب بالابر على آماق البصر ، ولكن حالة جهلها فى ذلك الوقت وبلوغها فى الظلم والجهل مبلغا لا يقدّر قدر عليها ان كارلوس هذا صاحب الدهاء والسياسة لم ينل شكراً على عمله ، بل حكموا عليه بالهلاك وأهانوا أولاده من بعده ، لانه استخدم فى هذه الحرب أموال الاساقفة والكهنة (فتأمل)

(عود) ومن فضائل هشام انه كان لا يدخل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون انه قد أخذ من حقه وأعطى منه كل ذى حق

وبنى فى عهده جامع الزيتونة بتونس وهى دار العلم بها للآن (أدامه الله كذلك) وهو الذى أقام بها (دار صناعة) (١) (لانشاء المراكب الحربية وتم ذلك وغزت المراكب جزيرة صقلة وضرب على أهلها الجزية

ذهبت جنوده غازية الى الجنوب حتى جاوزوا السوس الأقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة ، وهو الذى بنى الرصافة وابتنى فيها قصراً وزاد فى عمرانها وحضارتها

ظهرت فى عهده بدعة الخارجية فى البربر وتلقها رءوسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب . نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الأمم اليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم ، ولما بلغ الخبر بذلك الى الخليفة هشام عزل عبيدالله عن المغرب وكتب اليه بالقدوم ، وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألفاً من المقاتلين وبعد د.'

---

(١) دار صناعة ـ أى ترسخانة ـ المستعملة الان وهى محرفة من تلك

شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدى سبا فقامت القيامة ، ووجه حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على المغرب والتق مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الاصنام فهزمهم بعد قتال أبلى فيه بلاء حسنا ، وكتب الى الخليفة بذلك ففرح فرحا شديداً ، ثم ولى حنظلة بن الخطر وحسام بن ضرار الكلبي من قبله واليا على الاندلس فاستقام له بها الأمر حينا من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى أن تطرق الخلل الى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان آخر خلفائهم والله أعلم

يرى القارىء أن بلية الأمة الاسلامية فى هذا العهد من أبناء جنسها وملتها أشد من بليتها من أعدائها . مؤن الجيوش المقاتلة التى جهزها هشام لقتال رعاياه الخارجة عليه أكثر مما جهزه لفتح البلاد المناوئة له ، ولاشك ان الاستظهار على الخليفة ومقاتلة جموعه وجيوشه لا يكون الا من فساد القلوب والنيات ومفارقة أدب الدين من أمثال هذه العصائب الخارجة

قلنا ولانزال نقول : ان الصبغة الدينية تذهب بالتحاسد والتنافس وتفرد الوجهة الى الحق والاستبصار بالأمور والتساوى فى الطلب والاستماتة على العهد تفى فى جانبها الاغراض المتباينة ويمحق الباطل ويخذل وذلك من شدة تقوى القلوب وسلامة الصدور ونقاوتها ، ولذلك لم يقف للعرب فى أول أمرهم أحد ولم يغلبوا على ما بأيديهم لأن الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم

لاتجد ضعفاً فى دولة الاسلام إلا وسببه فساد العقيدة . يدخل هذا الفساد بين العصابة وكان سعيها واحدا فى الذب عن الحوزة بأقصى مرامى العز والصولة ، فما تلبث الاوقد فشل ريحها ورئمت للمذلة والاستبعاد ، ثم يتمادى هذا الطغيان حتى تكثر ألوان الشر والسفسفة ، وتذهب خلال البر والخير

ان الذى يريد بالملة الاسلامية خيراً لا يدعوها لشىء من العمل قبل رجوعها الى أدب الدين فانه علاج لهذه الامراض المزمنة ، وهو الذى يرد الشىء الى جنسه وصنفه ويخلع عليه مقدار عظمته وقوته فمن لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله

الامير موسى بن نصير

﴿ ومولاه الفاتح طارق بن زياد ﴾

الأمير موسى بن نصير هو مولى عبد العزيز عم الوليد بن عبد الملك كان والده نصير على جيوش معاوية رضى الله عنه ويقال انه بكرى من بكر بن وائل ويقال انه لخمى

كانت ولادته فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويقال انه تجهز مع أم البنين حين ابتنى بها الوليد فأمت مكانه عنده الى أن بلغ ما بلغ رأيه وإقدام مولاه طارق بن زياد

كان موسى بن نصير رجلا عاقلا كريما شجاعا ورعا تقياً تولى افريقيا وغزا الغزوات العديدة فلم ينهزم له جيش قط وكان كثير المغنم حتى قالوا لم يسمع فى الاسلام بمثل سباياه قط . وكان طارق مولاه هماما مدبرا مقداما يحمل على مناوئه برويته وتدبيره فيصل من عزمه ويبيد من قوته

هما من أشد قوادم أجنحة دولة بنى أمية التى طارت بها الى الفتوحات العظيمة شرقا وغربا يليق بهما أن يشاطر الخلفاء (الوليد وسليمان وهشام) الشهرة ورفعة الصيت والتقدم العصرى . فانما الدولة برجالها

هما هما اللذان امتدت بعنايتهما سطوة الاسلام فى أفريقيا ، وشهرته فى المغرب . وفيما فتح الله من بلاد الاندلس يكفى للدلالة على فضلهما

إن الأمير موسى بن نصير ماولى أفريقية فى سنة سبع وثمانين حتى أخذ فى رتق الفتق ولم الشعث وأصبح ما خلف مصر الى البحر المحيط بين برى البربر والاندلس تحت تحدثه ينظم أحوالها ويؤسس نظامها ويقيم قسطاس العدل بين أهلها وينشر نبراس الحق فيها حتى أحبه الناس وآثروه على أزواجهم وافتدوه بها

وان طارق بن زياد بنى بفتوحه لحليفه من المجد المشيد والذكر ما يلعقه الليل والنهار ولا تعفى حديثه الأعصار

جمعنا سيرتهما فى هذه السطور من غير افراد ، لأنه لا تفترق بين عن شمال
ان كنا ألمعنا بشىء من تاريخهما فيما سبق من ذكر خلفائهما

تقدم الامير موسى بن نصير الى مدينة سبتة بعد تمهيده الأمر مع صاحبها
(جوليان) الغوطى فصانعه بالهدايا حتى اذعنه للجزية ثم أقره عليها واسترهن
بنه وابناء قومه على الطاعة ، فما رأى بقية البربر ذلك حتى استأمنوا جميعاً لموسى
فقبل منهم

ثم نظر نظرة فى أمر بلاد الاندلس فأدرك عظمتها وفكر فى فتحها وأومأ به
الى مولاه طارق بن زياد فما هو الاآن حاضها بالسرايا وعلم عوراتها وفروج
ثغورها وتعاريج شطوطها وطالعها بها فجهزه وأمره بفتحها فعبر الاندلس بثلثمائة
عربى واثنى عشر ألفاً من البربر من سبتة الى الجزيرة الخضراء فجمع «رودريك»
أكابر دولته وشاورهم واستقر رأى القوم على محاربة العرب فلاقوهم فى مائة
ألف نفس فهزموهم ودخلوا البلاد

يقول قوم : ان السبب فى هذا الانتصار حقد (جوليان) الغوطى صاحب
سبتة على (رودريك) ملك الغوط لانه غشى ابنة له على غير حل مستكرها لها
غير أن هذا لا يقوله عارف بالخبر . والغالب أن هذه الدعوى فرية مفتر ، لأن
فتوحات العرب توالت وتعددت ولا يمكن أن يحتمل لكل فتح جلل فتح جميل
وماذا الذى يظن القائل بهذه الفرية أن يبلغه (جوليان) بالعرب من الخير أو الشر
وهب أنه بين لهم مداخل عدوهم وأرشدهم الى مكامنه وأظهرلهم عورات جيشه
فماذا يفيدهم والعرب عشرة آلاف نفس تقابل مائة ألف أو يزيدون وهم فى
بلادهم يصدون عدوهم عنهم

ان انا . بلغ بأمه العرب ما بلغ هو اليأس الذى يدفع الانسان الى كل عمل كما
فى هذه الحادثه . أو شدة الاستمساك بالدين والتحقق مما ادخره الله للمجاهدين
كما وقع فى حرب فارس وملوك الهند وخاقانات الترك وغيرهم من الاقاصرة
والأكاسرة الدين هم أشد منا بأساً وأكثر عددا

ان اليأس من أشد العوامل فى النفس حتى قال حكيم من حكماء اليونان
(اذا كان لك عدو فلا تيئسه لانه يفعل بك مايشاء)

رأى طارق بن زياد جيوش (رودريك) وانتظامهم وحسن ملابسهم وكثرة عدتهم ووفرة عددهم وجودة سلاحهم وماعلى رءوسهم من الخوذ وعلى أجسامهم من لامات الحديد السابغة فهاله الامر وخاف على جيشه القليل فأراد أن ييئسا ويقطع عن قومه كل أمل فى العودة فأمر بالسفن فحرقت ثم قام بينهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال . (أيها الناس اين المفر ؟ البحر وراء كم ، والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم أهل البلاد بجيشهم وأسلحتهم وأقواتهم موفورة ، وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ماتستخلصونه من أيديهم ، وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً فشلتم وذهب ريحكم واستعاضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم احذركم امراً انا عنه بنجوة ، ولاحملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ولم أبدأ فيها بنفسى ؛ واعلموا أنكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم للملوك هذه الجزيرة اصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين

واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم اليه ، وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على (لزريق) كبير القوم فقاتله ان شاء الله . فاحملوا معى فإن هلكت

كفيتم أمره ولم يعوذكم لبطل عاقل تكلون أموركم اليه !! وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا القوم بقتله فانهم بعده يخذلون)

ثم حمل وفتحت البلاد وكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية واعلاء الكلمة الاسلامية

، التقى مع جيوش (الغوط) ودارت رحى الحرب ساعة انقضت فيها أبطال العرب وكانوا ثلثمائة على صناديد البربر وكانوا عشرة آلاف فبددوا شمل جيش (الغوط) وترك (رودريك) مركبته وكانت من العاج الناصع ولم يعلم أين ذهب

وجد طارق أن هذا النصر المبين فرق عسكر (رودريك) وأهلكه وبدده وأصبح الشعب فى ... حل عظيم فعث رحاله وافتتح « قرطبة » بعد حصارها ثلاثة أشهر « وطليطلة » بعد حصارها والتضييق عليها ، وعقد مع أهلها صلحا اباح فيه حريه الخروج لمن أراد من السكان ، وترك لاهل الكتاب كنائسهم وبيعهم ومتعهم بحرية دينهم وشرائعهم وأبقى لهم قضاتهم . ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به من المدن بجهات « قسطيلة » وما زال سائرا حتى وصل فى مسيره إلى جبال أسطوريا أى بعد مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه ووقف عند مدينة جيجون قرب خليج باسكاليا حيث الاقيانوس ورجع من هناك الى طوليد ليلتقى بالامير موسى بن نصير

..اء الامير موسى وألقى العصا وسار بعسكره الضخم يكمل ما ابتدأه طارق ...فة للناس ما عاهدوه عليه حتى صفا القطر وطمس نفوس من أقام على سلمه ووطا لا ... المسلمين فى الحلول به

أخذ الأمير ... سى بناء على اشارة « جوليان » فى محاربة بعض الغوط الذين لم يخضعهم ...ارق فتقدم طارق وتبعه الامير بعسكره وسار الى (غديانة) وحصرها وأعد... أعمال الرومان فيها كالجسر ومصانع المياه وأبنية الملاعب الموجودة فى (لسب ... ...رقسطة » واتصل الرعب

بأهالى البلاد وأدى مادهمتهم به جيوش المسلمين الى أن هذين الفاتحين صارا لا يمران بموضع الا فتحت لهما أبوابه حتى انتهوا الى وادى (ردونه) ودوخ جيش طارق وسراياه البلاد التى لم تخضع لسلطانه

كان الامير موسى بن نصير مع تقدمه فى السن وماعلاه من وخط الشيب مقداما يعشق المجد ويصبوا لافتتاح البلاد حازما عاقلا ذاسياسة حليلا . كان فى نيته أن يتقدم فيفتتح بلاد فرنسا (المعروفة ببلاد الغالة) وايطاليا المعروفة ببلاد (اللنبازدو) ثم يمر بجانب (جرمانيا) الى (هونكاريا) الى الاستانة إلى أسيا الصغرى ويصل لمقر الخلافة

لم يكن يبنى هذه الصروح على الهواء لان سطوته فى هذا الوقت كانت امتدت الى أعماق القلوب ، وعدوى الخوف والفزع من جيوش العرب عمت جميع اولئك السكان وسرت من بلد الى بلد ، ولكن أتاه رسول الوليد يأمره بالحضور وكان قد فتح جميع البلاد ولم يبق فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الا « حاية » ...

أطاع هذا الفاتح أمر خليفته وترك مابيده ولبى أمره بعد ما ملك بلادا مثل بلاد الاندلس وألقى بينه وبين مقر الخلافة البحر الزخار ، وأصبح فى ملك لاتناله الأقدام والحوافر الا بشق الانفس

ترك بلادا هو مفترعها ورجالا هو مستملكهم لا يعرفون غير خيره ولا يخافون غير شره ، وفى يده من الذخائر والاعلاق والاموال والمعاقل والرجال مالو أظهر الامتناع به لنال المرام . فتأمل لمثل هذا الاخلاص . وتحدث بنس هذه الطاعة

سار الأمير موسى الى مقر الخلافة وولى ابنه عبد العزيز على بلاد الاندلس وهو أول من اتخذ له سرير ملك فيها وكان باشبيلية . لان طارق والأمير موسى لم يتخذا سريرا للسلطنه فيها

عقد عبد العزيز لاربع خلت من شهر ... من السنة الرابعة والتسعين من الهجرة بمحضر أربعة شهود من المسلمين عهدة صلح مع الأمير (...) على المدن السبع التى كانت له بأن يعطى (اطوده ...) ...

ولا يعتدي عليه في ماله ونفسه وعرضه وأولاده وكنائسه على ان يسلم له المدن السبع ، وان لا يقبل ولا يساعد أعداء الخليفة ولا يكتم من نيتهم شيئا ، وان يدفع فى كل سنة عنه وعن كل رجل من (الغوط) دينارا واحدا وأربعة كيلات حنطة ومثلها شعيرا وقدرا من الزيت والعسل وأتباعهم نصف ذلك

ثم اخذت البلاد فى النمو وسمح الأمير موسى وطارق لاخوتهما العرب فى أفريقيا ومصر بالانتقال فانتقلوا الى (لشبونه) و (موركه)وفى اقل من قرن واحد بلغت واردات البلاد من الزراعة والتجارة والصناعة مالالبدا فضلا عن الجبايات واموال الفتوحات

قدر اهل العرفان ان ما كان يجيء من الاندلس فى ذلك الوقت يعدل مداخيل اوروبا ، وهذا النمو انما هو من نتائج الحرية وعدم التعرض لأحد فى ماله وعرضه ونفسه ، وقد انقظ احتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين الى العلوم والصنائع وظهر فضل اولى النباهة والذكاء ، واحب اهل اسبانيا العرب فآخوهم وارتفعت الخلافات من بينهم حتى كانو يختتنون مثل العرب ويمتنعون عن المحرمات المحرمة عندهم فدعاهم من شذ عنهم من المجوس (مارارابى) اى انصاف عرب

رزق الله بنى امية بالفاتحين من الخلفاء وبالخيرة من القواد ، فى تلك الأزمان امتد حكمهم مسافة مائتى يوم من المشرق الى المغرب ، وكانت آى القرآن تقرأ فى سمرقند كما تتلى فى قرطبة ، ويتلاقى الهندى مع السودانى فى مكة للحج وكلاهما يدين لبنى امية . وظهرت على كل الممالك قدرة وغنى . وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة اقسام من الارض : آسيا ، وافريقا ، واوروبا ملكوا من اراى جبل الطور الى قفار ماوراء النهر ، ومن وادى كشمير الى منحدر جبل (طوروس) على البحر الابيض وأطراف الاناصول وسائر مملكة الاكاسرة . ومن الجزر قبرص واقريطش وردوس وجزائر بلياره وشمال أفريقيا والبلاد الممتدة من بوغار جبل طارق الى برزخ السويس . وقسموا سواحل البحر الابيض الى حكومتين : احداهما بالمغرب تشتمل على الاقاليم القديمة اليونانية . والاخرى بالمشرق وهى عمالة مصر وبرقة البحرية وأحدث الجزية التى قررها سيدنا عمرو

—من بلاد النوبة كما أخذت من الهند والصين كما قدرها مسلم بن قتيبة
، وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق حتى صارت دمشق في
المسلمين كأنما هي روميا في نظر المسيحيين
دمشق ثاني مقر للخلافة الاسلامية بعد المدينة المنورة . وكما كانت تتيه
على البلدان بمياهها واشجارها ورياحينها كذلك كانت تعتز بمقام الخلافة وبما
فيها بقية آثار الملوك الكنعانيين والروم وآل حفنة العرب
فكانت زينة الدنيا واهلها احسن الناس خلقاً وخلقا يجمع بين العلماء
والزهاد ، وفيها لكل شيء من ذلك سبب

وجامع الوليد المعروف بالجامع الاموي قائم فيها وهو أفخر مأثرة لملوك بني أمية
الى غير لطائف البلاد الطبيعية ، ومحاسنها الوهبية التي لا يحصيها لسان
ولا يصفها بيان

هذا وقد كدنا أن نخرج بهذه الأوصاف وغيرها عن معنى الترجمة التي
قصدناها ، وانما اردنا ان نبين للقارىء كيف كان مقام الخلافة في الشام
الى عهد هشام

تم الجزء الأول من كتاب حماة الاسلام

ويليه

(الجزء الثاني وأوله — عبد الرحمن)

﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب حماة الاسلام ﴾

صحيفة

تم فهرست الجزء الأول من كتاب حماة الاسلام